

کتاب ثقافیه

عازنا فی الجبائر

جان پول سارتر



www.j4know.com

عارفانی الجزائر

بقلم

جان بول سارتر

الجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي

لمنى أرفع لكم صوت التحذير والنذير من وسائل الاستعمار الجديدة ..
فالاستعماريون المحدثون يقسمون المستعمرين إلى فئتين : فئة صالحة ،
وأخرى طالحة شريرة !!

ولن الفساد الذي استشرى في المستعمرات إنما مرده إلى هذه الفئة
الشريرة ، ولكي يضلواكم في متاهات هذا الادعاء الكاذب الذي ذهبوا
إليه تجدهم يتجولون بك بين ربوع الجزائر ، حيث تقف على رؤس الشعب
وتراه رأى العين ، ثم يقضون عليك ألوان العذاب التي يتجرعها المسلمون
على أيدي هؤلاء المستعمرين الأشرار حتى إذا فاض بك الأسى والحلق
قالوا لك : « من أجل هذا نار الجزائريون ؛ فقد أصبحوا لا يطيقون
هذا الوضع الرجيم » فإذا جازت علينا خديستهم هذه وانظلي علينا ضلالهم .
خرجنا ونحن مقتنعون أولاً بأن المشكلة الجزائرية مشكلة اقتصادية ، وأنه
لا بد من القيام بالإصلاحات لتوفير الخير للملايين . ثم هي بعد ذلك مشكلة
اجتماعية ، فيجب مضاعفة المستشفيات والمدارس . وأخيراً فهي مشكلة
تقانية تخضع لنظرية « دومان » في مركب النقص لدى طبقة العمال ،
فالجزائري الجاهل الذي يزرع تحت نير الاضطهاد ، ويتضور جوعاً يشعر
بمركب النقص تجاه أسياده . وأن معالجته وتهدئته تكمن في مواجهة
هذه العوامل الثلاثة والتغلب على مشكلاتها فإذا امتلأ بطنه والتحق بعمل ،

وقضى على أميته ، فانه لن ينحجل بعد من أن يكون إنساناً أو في درجة من الإنسان الأوربي ؛ وبهذا وحده تتجدد الأخوة الفرنسية الإسلامية القديمة .

ولكن يجب علينا — في زعمهم — ألا نخلط ذلك الإصلاح بالسياسة فالسياسة أمر معنوي أو مجرد :

فإذا يجنى الجزائريون من وراء اشتراكهم في الانتخابات وهم يتضورون جوعاً ؟

لن الذين يتحدثون عن الانتخابات الحرة والجمعية التأسيسية والاستقلال الجزائري ليسوا إلا مثبتي القلاقل والفتن والشغب ، وهم الذين يعملون على عرقلة المساعي الطيبة لحل المشكلة الجزائرية .

تلك هي حججهم وذلك منطلقهم السقيم ، وقد أجاب عنها زعماء جبهة التحرير الوطني بقولهم :

« لنا سنقاتل ونستमित في القتال حتى وإن نكن سعداء في ظل الحراب الفرنسية » .

ولاشك أنهم على حق في إجابتهم السديدة . بل يجب أن تذهب بعيداً أكثر مما ذهبوا : لأن الانسان لا يملك إلا أن يكون شقياً في ظل الحراب الفرنسية المشرعة . حقا لمن غالبية الجزائريين يعيشون عيشة ضنكا ، وفي فقر مدقع ، ولكن من الحق كذلك أن نؤمن بأن الإصلاحات الأساسية لا يمكن أن تتم على أيدي « المستعمرين الصالحين » ولا على يد فرنسا نفسها مادامت وجهتها هي السيادة على الجزائر ، وأنه لن ينهض بها إلا الشعب الجزائري نفسه حين يظفر بحريته ، ويكون مستقلا استقلالاً لا تشوبه شائبة .

لأن الاستعمار لم يكن محض مصادفة . ولم يكن وليد آلاف المشروعات الفردية . وإنما هو نظام أقيم حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، وبدأ يؤتى أكمله حوالى عام ١٨٨٠ ، ودخل فى طور التصدع والانهدام فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وهو اليوم يرتد بالوبال على المستعمرين .

هذا ما أود أن تتعرفوا عليه فيما يتعلق بالجزائر . التى هى مع الأسف العميق أبلغ مثال وأبرزه للنظام الاستعماري . أريد أن أوقفكم على قسوة هذا النظام الذى لا بد أن يقتهى إلى هذه النهاية المفجعة .

وكيف أن أخلص النيات إذا ولدت وترعرعت فى داخل هذه الهوائى الجهنمية استطلت إلى فساد مجسم . . فليس هناك مستعمرون صالحون وآخرون طالحون ؟ بل هناك مستعمرون فحسب .. ونحن اذا ما عرفنا ذلك حق المعرفة أدركنا من فورنا لماذا كان الجزائريون على حق فى هجومهم على بناء هذا النظام الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، وكيف أن تحريرهم بل تحرير فرنسا ذاتها لن يتحقق إلا إذا قضى على الاستعمار قضاء مبرماً .

لأن هذا النظام لم يكن تلقائياً عفويًا فالحق أن « ملكية يوليو » و « الجمهورية الثانية » لم تتوصلا إلى لإدراك ما ينبغي عمله فى الجزائر المحتلة .

ولقد كانت هناك فكرة بتحويلها إلى مستعمرة لسكنى الفرنسيين الفائزين ، وكان « بوجو » Leroy-Beaulieu يؤمن (بطريقة الاستعمار الرومانى ، وعلى هذا الأساس منح الجنود العاملون فى الجيش الأفرقى مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل الذريع .

لقد كانت بغيتهم أن يدفعوا الى لافريقية الأوربيين الفائزين من لجراء فرنسا وإسبانيا المتسكنين ، فأقاموا لهؤلاء الرعاع بضع قرى حول مدن الجزائر وقسطنطينة ووهران ، ولكن الأوبئة مالبثت أن فتكت بأعمهم الأغلب .

ثم حاولوا بعد يونية عام ١٨٤٨ أن يدفعوا الى تلك البلاد موجة أخرى من العمال العاطلين الذين كانوا مئارا لإطلاق لقوات الأمن في فرنسا .
وقدر هذه الموجة بعشرين ألفاً ، ولكن الكوليرا فتكت بأغلبهم وعاد التاجون من الوباء الى فرنسا ثانية .

وهذا الذي حدث أدى الى أرجحة الخطط الاستعمارية ثم استقرت بعض الشيء في عهد (الأمبراطورية الثانية) بفضل قيام الصناعة وازدهار التجارة .. فإذا الشركات الاحتكارية الاستعمارية الكبرى تقوم في قرارت متقاربة .

ففي عام ١٨٦٣ أنشئت شركة استعمارية للتسليف العقارى ، ومصرف وفي عام ١٨٦٥ أنشئت شركة تسليف مرسلية ، وشركة معادن حديدية في (موكتا) ، وشركة عامة لسفن النقل البخارية .

وفي هذه الفترة أصبحت الرأسمالية والأميرالية متلازمتين .

وقد نصب جول فيرى Jules Ferry نفسه ليكون الناطق بلسان هذا النوع الجديد من الاستثمار ، فقال :

(لمن فرنسا التي تقلت جانباً كبيراً من رءوس الأموال فيها واستثمرتها في الخارج ، عليها أن تنظر الى المسألة الاستعمارية من هذه الزاوية .

لمتها قضية الأسواق ، بالنسبة لبلاد كبلادنا ، فهي مضطرة بدافع من طبيعتها

وصناعاتها إلى تصدير كميات وفيرة عظيمة .. فإذا وجدت السيادة السياسية وجدت سيادة المنتجات أي السيادة الاقتصادية) فكان جول فيري الركن الركين للجمهورية الثالثة . أول من عرف الاستعمار لابين ، ووجهة نظره . تتفق إتفاقا تاما مع المتبردين في عام ١٩٥٦ : فهو ينادى (بالعمل السياسي أولا) .

إنه يرى (أولا) القضاء على كل مقاومة وكل لرهاب .. ثم يقام النظام الاقتصادي بعد ذلك .

وما القضية بعد ؟ -

هل يجب إقامة صناعات في البلاد المحتلة ؟

كلا : إن رءوس الأموال التي تستثمرها فرنسا لا يمكن أن توظف في بلاد متخلفة اقتصاديا ، مشكوك في قدرتها وإمكاناتها ، وسيطول الزمن حتى تؤتي ثمارها ، ذلك أنه يجب إعداد كل شيء وتجهيزه من جديد وعلى فرض أن هذا ممكن التحقيق ، فما جدوى خلق منافسة مصطنعة لإنتاج فرنسا نفسها ؟ .

إن (فيري) كان واضحا جداً فرءوس الأموال الجديدة لن تخرج من نطاق فرنسا ، وإنما هي ستستثمر في الصناعات الجديدة التي تصدر كل منتجها إلى البلدان المستعمرة .

وكانت النتيجة المباشرة لهذا الفرض إقامة الاتحاد الجركي (١٨٨٤م) وما يزال هذا الاتحاد قائماً حتى الآن .

ويؤمن هذا الاتحاد أو الحاجز الجركي احتكار السوق الجزائرية للصناعة الفرنسية التي يعرقل انتشارها في السوق العالمية الارتفاع الفاحش لأسعارها .

ولكن لمن تنوى هذه المصانع بيع منتجاتها ؟ الأجزاءيين ؟
هذا أمر مستحيل : فمن أين لهم القدرة الشرائية ؟ إن هذه الخطة
الاستعمارية ينبغي أن يقابلها خلق قدرة شرائية للمستعمرات ، والمستعمرون
طبعاً هم الذين سيفيدون من كل الطيبات وبكل الأرباح والذين سيحولون
لدى مشترين في المستقبل . والواقع أن المستعمر هو أولاً وقبل كل شيء
مشتراً اصطناعياً ، خلقته فيما وراء البحار الرأسمالية التي تبحث لها عن
أسواق جديدة .

وقد كان « بيريموف » (Peyerimhoff) منذ عام ١٩٠٠ يؤكد
هذه النقطة بالذات في حديثه عن الاستعمار « الرسمي » فيقول :
« إن المستعمر قد أصاب ثروته من الحكومة ، لما عن طريق الهبة ،
أو عن طريق هذه الامتيازات الهائلة التي تمنح له . وقد أقدمت الحكومة
على القيام بتضحيات ضخمة من أجل المصالح الفردية كان لا يمكن أن تبذلها
في بلاد مستثمرة استثماراً كلياً » .

وهنا يتجلى بوضوح الجانب الثاني من البناء الاستعماري :
لن على المستعمر أن يكون بائناً لكي يكون مشترياً . فلن سيبيع ؟
لأنه سيبيع للمستوطنين الفرنسيين . وماذا يبيع من غير صناعة ؟ لأنه سيبيع
لهم منتجات غذائية ومواد أولية . وهكذا ينهض النظام الاستعماري
تحت رعاية الوزير « فيري » والمفكر النظري « لوروي بوليو »
Leroy-Beaulieu وما التضحيات التي تقدمها الدولة للمستعمر ، هذا
الإنسان الذي ترضى عنه الآلهة ويحببه المصدرون ؟ لأن الجواب يسير وهو
أن تضحي له بممتلكات المسلمين ، وتقدمها له قرباناً .

فقد اتفق أن كانت المنتجات الطبيعية في البلد المستعمر مما يثبت على الأرض ، وهذه الأرض تخص « سكان البلاد الأصليين » . ففي بعض المقاطعات القليلة السكان ، ذات المساحات غير المزروعة ، تكون السرقة أقل ظهوراً : فإن الذي يرى هو الاحتلال العسكري ؛ والعمل الإجباري . أما في الجزائر فإن جميع الأراضي كانت مفلوحة قبل وصول القوات الفرنسية وهذا يعني أن مايزعمونه من قيامهم « بحرث » الأراضي وزرعها قد قام على عملية اغتصاب من السكان استمرت طوال قرن : لأن تاريخ الجزائر هو العمل على زيادة الأملاك العقارية الأوربية تدريجياً على حساب الأملاك الجزائرية .

وقد كانت جميع السبل سهلة ميسرة .

ففي أول الأمر كانوا ينهزون أدنى لمائة من مقاومة لمصادرة الأراضي أو الحجز عليها .

وكان « بوجو » يقول « لاينينا في شيء أن تكون الأرض الطيبة لهذا الإنسان أو ذاك » وقد أدت لهم ثورة ١٨٧١ أجل الخدمات : فلقد سلبت مئات الألوف من الأفدنة من المغلوبين على أمرهم ولم يكثف الغاصبون بهذا بل أردنا نحن الفرنسيين. أن تقدم المسلمين هدية جميلة : أصدرنا لهم قانوننا المدني . ولكن ما مرد هذا الكرم العظيم ؟ مرده أن الملكية القبلية هي غالباً ملكية جماعية ؛ فأرادوا تفتيتها ليتاح للتجار شراءها جزءاً جزءاً .

ففي عام ١٨٧٣ كلف رجال التحقيق بتحويل الملكيات الكبيرة إلى أخرى صغيرة توزع على أفراد القبيلة ؛ وكان هؤلاء المحققون يقومون بتوزيع الأنصبة على المستحقين . وكان بعضها خيالياً ؛ فقد اكتشف أحد

المحققين في دوائر «حرار» أن ثمانية هكتارات يمتلكها خمسة وخمسون على المشاع ، فقام برشوة أحد هؤلاء الشركاء ليطلب بالتقسيم .

فما أن فعل حتى دخل التقسيم في قيود من الاجراءات الفرنسية ، المعقدة الطويلة انتهت بجميع الشركاء إلى الإفلاس وبهذه الطريقة القائمة على الاحتيال استطاع تجار الأملاك الأوربيين شراء أراضيهم لقاء اقامة خبز .

حقيقة وجدنا في مناطقنا فلاحين من أفقرهم تركيز الأراضي في يد واحدة أو احتكار التصنيع فباعوا حقوقهم والتحقوا بالعمل في المدن . فإذا عمدنا في بلادنا إلى التوزيع العادل للأرض فلا يمكن أن تقول إن هذا العمل ينطوي على السرقة .

أما هنا في الجزائر فقد فرض قانون أجنبي على المسلمين بدافع السلب والنهب . فن المعروف أن هذا القانون لا يمكن أن يطبق عليهم ، وليس له من أثر إلا هدم البناء الداخلي للمجتمع الجزائري .

وقد استمر هذا الإجراء في القرن العشرين تحت ستار كونه قانونا اقتصادياً اقتضته ضرورة ملحة . وما كان الأمر ليصبح كذلك لو أن الدولة الفرنسية لم تخلق بصورة مصطنعة ظروف الحرية الرأسمالية في بلد زراعي لقطاعي ، ومع ذلك فقد امتدح بعض الخطباء في مجلسنا النيابي فرض قانوننا فرضاً إجبارياً على الجزائر ، ووصف ذلك بأنه من مآثر المدنية الفرنسية .

وهاهي ذى نتائج عملية الاغتصاب :

في عام ١٨٥٠ كانت أملاك المستعمرين ١١٥٠٠٠ هكتار . وفي عام ١٩٠٠ ارتفعت إلى ١٠٠٠٠٠٠ ر٦٠٠٠ وفي عام ١٩٥٠ زادت إلى ٣٠٠٠٠٠ ر٧٠٣ . هكتار .

وإذن فإن ١٧٠٣٠٠٠ هكتار هي اليوم للملاك الأوروبيين ، وتلك الدولة الفرنسية ١١ مليون هكتار تحت اسم الأراضي الأميرية .

أما الجزائريون فقد ترك لهم سبعة ملايين هكتار فحسب أي أنه في خلال قرن واحد سلب منهم ثلث أراضهم . ولكن قانون التجمع قد أضر بعض الضرر بمصالح المستعمرين الصغار ، فهناك اليوم ستة آلاف مالك يزيد دخلهم من إنتاجهم الزراعي عن اثني عشر مليون فرنك وبعضهم يبلغ المليار . وعلى ذلك فالنظام الاستعماري قد حقق أهدافه .

فالدولة الفرنسية تقطع الأرض العربية للمستعمرين لتكون لهم قدرة شرائية تمكنهم من الإقبال على زيادة شراء المصنوعات الفرنسية على حين يبيع المستعمرون للأسواق الفرنسية محصولات الأرض المسلوقة ، وبهذا عزز النظام الاستعماري ، واكتملت حلقاته ، وعلينا أن نتابعه في كل مراحله حتى نرى قسوته وجبروته في وضوح.

١- الغرض من «فرنسة» الملكية الزراعية وتجزئتها هو تحطيم المجتمع القبلي القديم من غير أن يحل محله بديل آخر .

وقد شجع هذا التحطيم لأنه أولا كان يقتل قوى المقاومة ويستبدل بالقوى الجماعية وهن الأفراد ، ولأنه بعد ذلك كان يعمل على لمجاديد عاملة « على الأقل مادامت الحرائم لم تصنع » .

وهذه اليد العاملة وحدها تقوم بالتعويض عن ازدياد نفقات النقل والمحافظة على أرباح المؤسسات الإصتعمارية تجاه اقتصاديات فرنسا حين تنخفض تكاليف إنتاجها .

وهكذا حول الاستعمار الشعب الجزائري إلى يد عاملة زراعية ضخمة

حتى قال بعضهم عن جزائري اليوم أنهم يشبهون جزائري ١٨٣٠ ،
فهم يفلحون الأرض نفسها ، ولأن يكن هناك فارق بينها فهو أن الجزائريين
اليوم أجراء فيها وليسوا ملاكها .

٢- لو لم تكن السرقة من النوع الاستعماري المتعمد لكان في الإمكان
على الأقل أن يتيح الإنتاج الزراعي المصنع أن للجزائريين شراء نتاج أرضهم
بأنسب الأسعار ، ولكنهم لا يستطيعون أن يكونوا عملاء للمستعمرين .

لأن على المستعمر أن يقوم بالتصدير ليستطيع دفع ثمن ما يستورده :
لأنه ينتج للسوق الفرنسية . وعلى هذا - يدفعه منطق النظام الاستعماري
الى أن يصحى بمطالب الجزائريين من أجل لمراف الفرنسيين .

لقد زادت الأرض المنزرعة كرامين ١٩٢٧ ، ١٩٣٢ بمقدار ١٧٣.٠٠٠
هكتار أخذ أكثر من نصفها من المسلمين - ومعروف أن المسلمين لا يتعاطون
الحبوب ، وإنما كانوا يزرعون هذه الأراضي المنتزة منهم حبوبا للسوق
الجزائرية . وإذن فليست الأرض هي التي تنتزع منهم الآن فحسب ، وإنما يحرم
الشعب الجزائري من غذائه الرئيسي حين تزرع أرضه بالكروم ، وهكذا
يحول نصف مليون هكتار ، مقتطعة من أجود الأراضي ومخصصة كلها
لزراعة العنب إلى أرض لا تغل شيئا للجبهة الشعبية الجزائرية .

وماذا تقول عن الحاضيات والمواالح الموضوعية في جميع مجال بقالة المسلمين
أنتقدون أن الفلاحين يأكلون برقالا بعد فراغهم من طعامهم ؟
بما تقدم ، نجد أن إنتاج الحبوب يزحف عاما بعد عام نحو الجنوب
الصحراوي .

وليس من شك في أنه سيوجد من يبرون هذا الوضع فيقولون إن هذه
مكرمة من مكارم فرنسا وأفضالها ! !

ومعنى هذا أن التعمير واستصلاح الأراضى يزداد شيئاً فشيئاً ، وأن
الرى قد استحدث في البقاع المجذبة الصحراوية .

وهذه الأكاذيب قد تنطلي على المواطنين السذج القاطنين في فرنسا
أما الفلاح الجزائري فيعلم علم اليقين أن الجنوب الصحراوي لا يزال محروماً
من الرى ، وأنه أرغم على أن يعيش فيه لأن فرنسا صاحبة اليد العليا
اليضاء قد طردته من الشمال ، وسلبته أرضه الصالحة في المروج الخضراء
حول المدن .

وكانت نتيجة هذا الوضع السيء . . أن زراعة الحبوب ظلت على ما هي
عليه منذ سبعين عاماً مع أن سكان الجزائر قد بلغوا ثلاثة أضعاف ما كانوا
عليه من قبل ، ولئن قيل لمن ازدياد عدد السكان هو لمحدى حسنة فرنسا
فندكر أن أشد الشعوب بؤساً هي أكثرها ذرية . فهل ترانا سنطلب من
الجزائريين أن يقدموا لبلادنا الشكر لأنها أتمحت لأبنائهم أن يولدوا
في جحيم العوز والفاقة ، ويميشوا عبيداً ، ويقضون نجيبهم جياعاً؟ أما الذين
يشكون في هذه الحقيقة الدائمة ، فإليهم الأرقام من واقع الاحصاءات
الرسمية :

في عام ١٨٧١ : كان نصيب كل فرد خمسة قناطير من الحبوب .

وفي عام ١٩٠١ : أربعة قناطير .

وفي عام ١٩٤٠ : قنطارين ونصف .

وفي عام ١٩٤٥ : قنطارين .

وفي نفس الوقت ، كان من جراء تضيق الملكيات الفردية إلغاء
طرق المسير وحقوق المرور .

وفي الجنوب الصحراوي حيث جمعوا فيه القامحين على تربية الماشية من المسلمين فقد ظلت مواشيمهم على حالها من الهزال والقلّة .

أما في الشمال فلا أثر لها ، وقد كان في الجزائر قبل عام ١٩١٤ تسعة ملايين رأس من الماشية . أما في عام ١٩٥٠ ، فلم يكن لديها أكثر من أربعة ملايين .

أما الإنتاج الزراعي اليوم فهو كما يلي بالأرقام :
يظل المسلمون ما قيمة ٤٧ ملياراً من الفرنكات .
والأوروبيون ما قيمته ٩١ ملياراً .

أى أن تسعة ملايين نسمة تقدم ثلث الإنتاج الزراعي ، وهذا الثلث هو المحدد لهم للاستهلاك ، أما بقية المحصول فيصدر إلى فرنسا . ولأذن فطليهم بآلاتهم البدائية وأراضيهم الجديدة، واجب تغذية أنفسهم ولا هلكوا ويجب أن يستخلص من حصة المسلمين — بعد أن حدد استهلاك الحبوب بمعدل قنطارين للشخص — تسعة وعشرون مليار فرنك للاستهلاك الذاتي وهذا يعني في ميزانيات الأسر عجز معظم العائلات عن الوفاء بمحاجاتها ومطالبها فالنذاء يستنفد كل أموالهم فلا يبقى منها شيء للاتفاق على الكساء والسكنى وشراء الحبوب والآلات .

والسبب الوحيد في هذا الفقر أن سياسة الاستعمار الزراعية البراقة قد أضحت بمقارنة قرحة في جسم البلاد ، وأنها تتمس كل شيء وتأتى عليه .

٣ — يؤدي تجميع الأراضي في أيدي واحدة إلى تصنيع الزراعة ولا شك في أن فرنسا سعيدة ببيع جراراتها إلى المستعمرين وبينما قلت قدرة

المسلم الإنتاجية لتوطيته في أرض ضعيفة بنسبة الخمس ازدادت القدرة العرائية لدى المستعمرين لمصلحتهم وحدهم .

فالأراضي التي تنتج العنب وتراوح مساحتها بين هكتار وثلاثة ويستحيل فيها استخدام الأساليب الحديثة تغطي ٤٤ هكتولترا ، في كل هكتار . أما أراضي العنب التي تزيد مساحتها على ٦٠٠ هكتار فإنها تغطي ٦٠ هكتولترا في الهكتار وواضح أن ميكنة الآلات الزراعية يؤدي إلى البطالة وذلك بفعل الآلة التي تحمل محل العمال الزراعيين .

ولو كانت الجزائر تملك صناعة لكان ذلك ذا أهمية كبرى ، ولكن النظام الاستعماري يسلبها هذا الحق .

فإذا العاطلون يتدفقون نحو المدن حيث يعملون يوماً أو بعض يوم في أعمال التنظيم والنظافة ثم لا يجدون ما يعملون به ذلك ؟ وعاماً بعد آخر تتزايد أعدادهم ويمثلون طبقة الأجراء المستضعفة .

ففي عام ١٩٥٣ لم يكن هناك إلا ١٤٣.٠٠٠ أجير مسجلين في القوائم الرسمية على أنهم عملوا أكثر من تسعين يوماً في العام، أي بمعدل يوم لكل أربعة أيام .

وهذه نتائج الاستعمار البشعة التي لا مفر منها . فهم يبدأون باحتلال البلاد ، ثم سلب الأرض من ملاكها واستغلالهم بأزهد الأجور التي لا تمسك الرمق على أن هذه اليد العاملة الرخيصة تصبح مع التصنيع ، أغلى مما ينبغي ! وهكذا ينتهي الأمر بانتزاع حق العمل من السكان الأصليين وهو حقهم الطبيعي ولا يجد الجزائري ، وهو في بيته ويقم في أرضه، وفي وطنه المنصب المرع إلا أن يسقط تحت وطأة الجوع .

أما الذين يجبروننا بالشكوى من أن الجزائريين يهاجرون إلى فرنسا ليعتصموا أما كن العمال الفرنسيين ، فهل تراهم يعرفون أن ثمانين في المائة منهم يرسلون نصف رواتبهم إلى عائلاتهم ؟ ولأن مليوناً ونصف المليون من السكان الذين مايزالون يعيشون بين الخيام والأكواخ لا يقيم أودهم إلا من المال الذي يرسله لهم هؤلاء الـ ٤٠٠.٠٠٠ جزائري الذين اختاروا المنفى مقرأ لهم تحم وطأة الحاجة الملحة ؟ وهذا أيضاً نتيجة مخنومة من نتائج النظام الاستعماري البغيض : فالجزائريون مرغمون على التماس الخدمات في فرنسا وقد حرروا منها في الجزائر .

لن الاستثمار الاستعماري دقيق غاية الدقة بالنسبة لـ ٩٠٪ من الجزائريين : أنهم مطرودون من أرضهم . مكدسون في أراض غير صالحة يجبرون على أن يعملوا بأجور زهيدة تقرب من السخرة وتشير الاشمزاز والسخرية . وقد فعل ذلك ليشيط عزائمهم فلا يثوروا خوفاً من التشرذم وهكذا يصبح المستعمر سيداً متربحاً على عرشه يعز من يشاء وينذل من يشاء ، يعز القلة وينذل الكثرة : فليس هناك ما يحمي العامل من غائلة العجز والمرض والشيخوخة ؛ فلا تأمينات اجتماعية أو صحية ولا مستودعات للطعام ، ولا مساكن للعمال . وإنما هناك مساكن متراكمة وقليل من الخبز والتبن ، وعشر ساعات من العمل كل يوم : لمن الأجر هنا هو أجر الكفاف لاستعادة القوى من أجل استئناف العمل .

هذه هي الصورة الحية فهل يمكن أن نجد على الأقل تعويضاً عن هذا البؤس المنظم الذي خلقه المنتصبون الأوروبيون ، فيما يطلق عليه « الخدمات العامة » ، من قبيل الأشغال العامة والصحة والتعليم ؟ لو كان لنا هذا الزاء ، لكان في مقدورنا أن نحفظ ببعض الأمل ، فقل بعض

الإصلاح الذي يفعل بحكمة يخفف من هذا البؤس . ولكن لا . فالنظام الاستعماري لا يعرف الرحمة .

فا دامت فرنسا ، منذ اليوم الأول قد انتزعت من الجزائريين أولادهم وأبعدتهم عنها وما دامت قد عاملتهم على أنهم كم مهمل لا يثقلون حتى أنفسهم فإن العمل الفرنسي كله في الجزائر ما وجد إلا لخير المستعمرين ومصالحهم الذاتية .

ولن أتكلم عن المطارات والموانئ فهي لا تجدى الفلاح تفعماً إلا أنها تيسر له السفر إلى أحياء باريس الفقيرة ليقتضى نجبه تحت وطأة الجوع والصقيع أما الطرقات . فما شأنها ؟ لأنها تصل المدن الكبيرة بأملاك الأوروبيين وعناطق الاحتلال العسكرية .

وهي لم ننشأ لتتيح للجزائريين الوصول إلى منازلهم ومن الأدلة على ذلك أن زلزالاً عنيفاً قد اكتسح مدينة « أورليانز » ومنطقة « شليف » السفلى في ليلة ٨ - ٩ سبتمبر ١٩٥٤ .

وقد أعلنت الصحف نبأ وفاة ٣٩ أوروبياً و ١٣٧٠ مسلماً . وقد كان بين هؤلاء الضحايا ٤٠٠ شخص لم يعثر عليهم إلا بعد مرور ثلاثة أيام بعد الزلزال . ولم تصل النجادات الأولى إلى بعض الدور إلا بعد ستة أيام .

وفي التعليل الواهي الذي تقدمه فرق الإقاذ حكم صارم على العمل الفرنسي : « ماذا تريدون ؟ لقد كان هؤلاء المسلمون يبيدون كل البعد عن الطرق العامة » وماذا عن الصحة العامة ؟

لقد أرادت الإدارة الفرنسية أن تقوم بتحقيق ، بعد زلزال أورليانز عن حالة الدور . فتبين عن طريق المصادفة البعثة أن الذين اختارتهم كانوا

على بعد ثلاثين كيلو مترا أو أربعين من المدينة وأن ، الطبيب المكلف
بالإسعاف الطبي لم يكن يزورهم إلا مرتين في العام .

أما ثقافتنا العظيمة ، فمن يدري إذا كان الجزائريون يرغبون حقاً في
اكتسابها ؟ على أن من المؤكد ، حلنا بينهم وبينها . ولن أذهب إلى أننا
كنا في مثل وقاحة تلك الولاية من ولايات جنوبي الولايات المتحدة التي
شرعت قانوناً ظل سارياً حتى مطلع القرن التاسع عشر ، وضع فيه « تحت
طائلة العقاب » كل من يقدم على تعليم العبيد الزوج القراءة والكتابة
ولكننا على كل حال ، أردنا أن نجعل من « لخوانتا المسلمين » شعباً
من الأميين .

ويبلغ عدد الجزائريين الأميين اليوم ٨٠ في المائة ، وقد يهون الأمر
لو أننا لم نحرم عليهم إلا استعمال لغتنا . ولكن الواقع أن من متطلبات
النظام الاستعماري محاولة سد طريق التاريخ على المستعمرين .

ولما كان من مقومات القومية في أوروبا وحدة اللغة ، فقد حرم
على المسلمين استعمال لغتهم بالذات فاللغة العربية تعتبر في الجزائر لغة أجنبية
منذ عام ١٨٣٠ ، لأنهم ما زالوا يتحدثون بها إلى اليوم . ولكنها لم تعد
لغة مكتوبة إلا بالقوة ، لا بالفعل . ليس هذا فحسب بل لأن الإدارة
الفرنسية قد صادرت دين العرب لكي تعمل على تهيتهم وارتفاعهم
من جوهم العربي . وهي تختار رجال الدين الإسلامي من بين عملائها ،
وقد احتضنت أحط أنواع الحرافات التي تؤدي إلى سيادة التفرقة .

ولاشك في أن الفصل بين الكنيسة والدولة اتجاه جمهوري أصيل
يصلح لفرنسا .

أما في الجزائر فإن الجمهورية الفرنسية لا تستطيع أن تسنح لنفسها

بأن تكون جمهورية في الجزائر . لأنها تحرص على عدم نشر الثقافة وتحافظ على المعتقدات التي تخدم الإقطاع ، وذلك بإتاحة الفرصة ليظل الإقطاع حياً سائداً بإقامة مجتمع بشري تسود فيه القوانين ذات النزعة الفردية الحرة التي تهوض كل نهوض في المجتمع الجزائري ولكنها تبقى على الملوك الصغار الذين لا يستمدون سلطتهم إلا منها ، والذين لا يحكمون إلا من أجلها لها بكلمة واحدة تصطنع « ناساً من أهل البلاد » تفصلهم عن الجماهير الشعبية ذات العقلية المحافظة ، وذلك بأن تجعلهم في نطاق فردى حر يفصلهم عن عقلية المجتمع القديمة . لأنها توجد جموعاً ولكيها تحول بينهم وبين الوعي المستنير حيث تقوم بتضليلهم وخداعهم بما ترسمه لهم من مساحر هزلية .

وهنا نرنا مضطرين اضطراراً إلى الرجوع إلى محدثنا السالف الذكر — هذا المحدث الواقعي الطيب القلب ؛ الذي اقترح علينا القيام بإصلاح عريض حين نادى بشعار « الاقتصاد أولاً » ولما أجابه على الفور : بأن نعم ؛ لمن الفلاح يموت من المسغبة ، بل لأنه بحاجة إلى الكثير ؛ بحاجة إلى الأرض والعمل والعلم ، فالأوبئة تنوشه وحالة الجزائر الراهنة صورة مؤلمة تطفح بألوان البؤس الناشئ في المشرق الأقصى . ومع ذلك فن المستحيل القيام بالتغيرات الاقتصادية الأساسية لأن بؤس الجزائريين وضنكهم هما النتيجة المباشرة التي يتطلبها الاستعمار ، والتي يستحيل لمزاتها مع قيام الاستعمار .

وهذا ما يعلمه « جميع » الجزائريين الواعين ، فكلهم يؤمنون بقول ذلك المسلم « خطوة إلى الأمام ، وخطوتان إلى الخلف » تلك هي خطة الإصلاح الاستعماري « الخطة التي تقضى على كل محاولة جديدة للتنظيم السليم الخطة التي لا يمكن أن تبقى إلا إذا ازدادت كل يوم قسوة ومجافاة للإنسانية

ولنفرض ان فرنسا تقترح علاجاً لهذا الوضع ؛ إن أمامها ثلاثة حلول
أو فروض .

١ — فهي إما أن تحقق من تلقاء نفسها الإصلاحات التي ينشدها
المستعمر وتكون له وحده وقد مضت في هذا الحل فأتمت بناء سدود
كثيرة وأقامت جهازاً كاملاً للرى لزيادة المحصول الزراعى . ولكن
الحقيقة التي لا يمارى فيها هي أن الماء لا يروى إلا لأراضى الوديان والسهول
الأراضى التي كانت دائماً تعد من أجود أراضى الجزائر وقد اغتصبها
الأوربيون ، ويشترى « مارنان » صراحة بأن ثلاثة أرباع الأراضى
المروية انتهبها المستعمرون .

وإذا كنتم جادين أيها المستعمرون فاذهبوا إلى الجنوب الصحراوى
وتعهدوه بالسقى والرى !

٢ — ولما أن يشوه الإصلاح بحيث يصبح مبتوراً أو غير ذى فاعلية
والحق أن نظام الجزائر هو فى حد ذاته نظام شائه مسموخ .

فهل كانت الحكومة الفرنسية تنوى خداع المسلمين بانتخاب ذلك المجلس
من قبل طاقتين من الناخبين ؟ إن النظام هناك لم يتح حتى للخداع أن يعضى
إلى نهاية الشوط .

فالمستعمرون لم يتركوا للجزائريين نصيبهم من هذا الخداع ، فقد كان
بالنسبة إليهم كثيراً عليهم : لقد وجدوا أن من الأيسر تزوير الانتخابات
جهاراً ، مع اعتقادهم أنهم فى جانب الحق تماماً : فخير لمن أراد أن يقتل
الناس أن يطعنهم بالحرب . لأنها جذور الاستعمار التي تتغلغل فى نفوسهم
وتستبد بهم ، وما الاستعمار الجديد إلا الاستعمار القديم المقنع .

٣ - ولما أن ينحى الإصلاح الزراعى جانبا وتعمن الإدارة الفرنسية فى إجرامها .

كان قانون « مارتان » ينص على أن يتنزل المستعمرون عن بعض مساحات من الأرض للدولة ، مقابل زيادة المحصول التى تنشأ عن لزواء أراضيهم ، وقد باعت الدولة هذه المساحات إلى جزائريين أعطوا مهلة تسديد ديونهم فى خمسة وعشرين عاما . وأنتم ترون أن هذا الإصلاح كان متواضعا فالقضية بكل بساطة هى أن يشتري بعض السكان الأصليين المختارين قطعة صغيرة من الأرض التى سلبت من آباؤهم .

ولم يكن المستعمرون ليخسروا مليا واحداً فى هذه العملية ولكن ليست القضية فى نظرهم ألا يخسروا شيئا . وانما القضية هى أن يرجوا دائماً بل يحصلوا على مزيد من الربح . فلقد عودتهم فرنسا منذ مائة سنة على « التضحيات » التى كانت تقوم بها من أجلهم فلم يكن بوسعهم الموافقة على إفادة السكان الأصليين من هذه التضحيات وكان أن أهمل قانون « مارتان » وللوقوف على الحطة الاستعمارية تلقى نظرة على الطريقة التى أعدها فى الدوائر الزراعية لتتقين الفلاح المسلم ميكنة الزراعة أو أصول الزراعة الحديثة لقد عمدوا إلى إنشاء مؤسسة وهمية لهذا الغرض لم تكن الغاية منها إلا رفع طاقة الفلاح الإنتاجية رفعاً بسيطاً لا يزيد محصوله زيادة ضئيلة حتى لا يموت جوعاً .

ولكن مستعمرى فرنسا الجدد لم يدركوا فى بادئ الأمر أن هذه المؤسسة كانت إلبا على النظام .

فقد كان ينبغى أن يلقى إنتاج الفلاح قليلا حتى يباع بأسعار مرهقة وحتى تظل الأيدى العاملة متوفرة .

. إن العمال الزراعيين يضحون نادريين لـ إذا انتشر التعليم الفني ، ويصبحون أكثر مطالب ، بل إن الملاك المسلمين يشكلون منافسة خطيرة .

ثم إن التعليم أيا كان ، ومن حيث أتى يصبح وسيلة للتحرر .
ولذا كانت الحكومة يمينية فإنها تدرك ذلك جيدا ، حتى أنها ترفض تعليم فلاحينا في فرنسا بالذات ، فأولى بها ألا تنتشر المعرفة الفنية بين سكان الجزائر .

وهكذا ظلت هذه الدوائر الفنية غير ذات عمل بعد أن هوجمت خفية في الجزائر ويهتف في مراكش .

وهكذا تظل جميع الإصلاحات عديمة الجدوى . وهي بصورة خاصة تكلف غالبا .

ولا يملك مستعمرو الجزائر وسائل تمويلها ، بسبب تكاليفها الباهظة بالنسبة لفرنسا . فإن نشر التعليم العام — وهو لإصلاح غالبا ما اقترح — يكلف ٥٠٠ مليار فرنك « إذا حسبنا تكاليف كل تلميذ ٣٢٠٠٠ فرنك في العام بينما لا تتجاوز ميزانية الجزائر كلها ٣٠٠ مليار ، والحق أن إصلاح التعليم لا يمكن أن يتحقق إلا في جزائر مصنعة تبلغ ميزانيتها ثلاثة أضعاف ما هي عليه الآن .

ولكننا رأينا أن النظام الاستعماري يعارض التصنيع ، مع أن فرنسا تستطيع أن تلتهم الملايين في القيام بأعمال كبيرة .

وحين نتحدث عن النظام الاستعماري . فيجب أن نتناقش ، فليست القضية قضية آلية مجردة فإن النظام قائم ، وهو يعمل ، فدائرة الاستعمار الجهنمية واقع ملموس .. وهذا الواقع يتمثل في مليون من المستعمرين

وأبنائهم وأحفادهم ، شبوا في كنف الاستعمار فأصبحوا يكلمون ويعملون وفق مبادئ النظام الاستعماري .

ذلك أن المستعمر مصنوع كال مواطن الأصلي : لأنه مرتبط بوظيفته ومصالحه مرتبط مع الحكومة الاستعمارية بالميثاق الاستعماري ، فهو يتاجر لصالحه بالرأيا الفاحش ، فيترى من يبيع محصول البلد المستعمر . بل هو قد خلق زراعات جديدة تعكس حاجات فرنسا أكثر مما تعكس حاجات السكان الأصليين . فهو إذن يعمل في ازدواج . لمن له « وطنه » فرنسا « وبلده » الجزائر وهو في الجزائر يمثل فرنسا ولا يريد أن تكون له علاقات بسواها .

ولكن مصالحه « الاقتصادية » تدفعه إلى معارضة الهيئات « السياسية » في وطنه فهذه الهيئات الفرنسية ذات أنظمة ديمقراطية بوجوازية قائمة على الرأسمالية الحرة . وهي تضمن حق الانتخاب وحق الاجتماع وحرية الصحافة .

ولكن المستعمر الذي تمعارض مصالحه مباشرة مع مصالح الجزائريين ، والذي لا يستطيع أن يعيش إلا على الاستغلال والاحتكار لا يستطيع أن يقهر هذه الحقوق إلا لنفسه ويتمتع بها في فرنسا وسط الفرنسيين . وهو من هذه الناحية يبغض كل البغض أن تمتد انتزعات الفرنسية إلى خارج فرنسا إذن في هذه الحالة يمكن أن يطالب بها الشعب الجزائري ؛ ويؤيد كل التأييد النزعات العنصرية التي لا تنهب مذهب شمول الحرية البورجوازية من أن جميع الناس يتمتعون بحقوق واحدة ، بل لأنه يصنع من الجزائري رجلأ أدنى مستوى من سائر البشر ، واستنكاره لما تؤمن به الهيئات السياسة في وطنه حين يريد مواطنوه أن يبسطوا نزعاتها « على بلده » يورث عنده نزعة اقصالية . أليس هو زعيم المستوطنين الجزائريين الذي قال منذ بضعة أشهر : « إذا كانت فرنسا حائرة ، فنتحن نحل محلها » .

ولكن الناقض يبلغ مدها حين يذكر المستعمر أن المستوطنين الفرنسيين معزولون وسط المسلمين ، وأن نسبتهم هي تسعة الى واحد . والحق أنهم لما يرفضون كل نظام يمنح السلطة للأكثرية ، لأنهم فرضوا على أنفسهم العزلة ؛ فما من وسيلة أمامهم للبقاء إلا القوة .

ولكن هذا السبب — أى عزلتهم — ولأنهم يشعرون بضالة عددهم نراهم دائماً في حاجة الى حماية الوطن الأم ، أى قوة الجيش الفرنسي . بحيث أن هؤلاء المستوطنين المنعزلين يحيون حياتين ، ويؤمنون بدينين ، فبينما هم يؤمنون بالجمهورية في فرنسا — الى الحد الذى تسمح لهم هيئاتنا أن يقيموا لهم « سلطة سياسية » عندها — لذا هم في الجزائر فاشيون متطرفون يبغيضون ديمقراطية الجمهورية ويؤثرون الجيش الجمهورى بالحب العنيف .

وهل في مكنتهم أن يتحللوا من ذلك؟ لن يستطيعوا ماداموا مستعمرين . لقد حدثنا التاريخ أن بعض الغزاة الذين أقاموا في بلد ما واستوطنوه ، وامتزجوا بأهل البلاد وانتهى بهم الأمر الى خلق أمة جديدة، لها مصالح قومية مشتركة ، بالنسبة لبعض الطبقات على الأقل .

ولكن الاستعمار قد وقف سداً منيعاً وأقام حائطاً سميكاً فولاذياً بين المستوطنين وأهل البلاد الأصليين .

فنحن نحتل الجزائر منذ أكثر من قرن ، ولم يكدهم طوال هذه المدة أى زواج مختلط أو تحقق أية مودة فرنسية إسلامية اعتقاداً منه أن مصلحة المستعمرين هي محور الشخصية الجزائرية من أجل فرنسا . فلو كانوا مؤمنين بالجزائر وتقدمها والإبقاء عليها لعملوا — تحذوهم مصالحهم الخاصة — على الاهتمام بالتنمية الاقتصادية والثقافة في الجزائر .

وفي فترة الاحتلال ترى الوطن الأم واقماً في أحاطيل الاستعمار ما دام

يفرض سلطاته على الجزائر مع أن الاستعمار يُلطخ سمعته ومحط من شأنه ثم لأن الاستعمار يجبر الوطن الأم على إيفاد فرنسيين روحهم ديمقراطية إلى الجزائر وقد يلقون حتفهم لا دفاعاً عن الحرية ولكن دفاعاً عن الاستبداد والظلم الذي يضطنه مستعمرون فاشيون ، ولكن الحلقة تضيق هنا أيضاً فالظلم والظلمان الذي تمارسه لمصلحتهم يعرضهم كل يوم إلى مزيد من الإحن والأحقاد . ففرقتنا العسكرية ، قدر ما تحميمهم - تضاعف من الأخطار المحدقة بها ، مما يجعل وجود الجيش أمراً لا محيص عنه وسوف تكلفنا الحزب هذا العام ، إذا نحن واصلناها أكثر من ٣٠٠ مليار فرنك وهذا ما يوازي مجموع الموارد الجزائرية .

وها نحن أولاء نصل إلى النقطة التي يهدم عندها النظام نفسه بنفسه : لأن المستعمرات تبهظنا بنفقاتها أكثر مما تدر علينا .

لقد كان المستعمرون مثقفين مع أنفسهم ومخلصين لنظامهم حين قوضوا دعائم المجتمع الإسلامي ، ومنعوا حق التمثيل عن المسلمين ، فالتمثيل كان معناه ضمان جميع الحقوق الأساسية للجزائريين ، وأن يفيدوا من مؤسسات المعونة والأمن وأن يكون لهم في مجلسنا النيابي مائة نائب جزائري . وأن يهيأ السبيل للمسلمين ليعيشوا في مستوى من الحياة يعادل مستوى الفرنسيين وذلك بإجراء إصلاح زراعي حقيقي وتصنيع البلاد . وتمثيل الجزائريين معناه لذا تحقق نهاية الاستعمار : فكيف يسوغ الاستعمار هدم نفسه بنفسه ؟ ولكن ما دام المستعمر لا يهتف إلا لمصلحته وسعادته ولو على أشلاء المستعمرين وبؤسهم فلا بد أن يكون لهذا الموقف الدلبي رد فعل يتمثل في وعى الجماهير .

لقد اكتشفت الشخصية الجزائرية نفسها كرد فعل للتجزئة والنضال في سبيل الحياة ، وليست القومية الجزائرية مجرد أحياء للتقاليد والمواضعات

والصلات ، وإنما هي المخرج الوحيد الذي يملكه الجزائريون لوضع حد لاستثمارهم واستغلالهم .

لقد رأينا جول فيرى يصرح في المجلس « حيث السيادة السياسية تكون السيادة الاقتصادية . . »

ونحن نرى أن الجزائريين يترنحون ويتساقطون من جراء سيادتنا الاقتصادية ، ولكنهم يأخذون عبرة من هذه التجربة التي تمر بهم ، فلقد قرروا من أجل عدم سيادتنا الاقتصادية ، أن يهاجموا سيطرتنا السياسية وهكذا خلق المستعمرون لهم أعداء متربصين ، فأظهروا المترددين الناكين أنه ليس هناك من حل أمامهم إلا طريق القوة .

لأن المسئنة الوحيدة التي يمكن أن تذكرك للاستعمار هي أن يظهر بمظهر الصلابة والتشبث من أجل بقائه واستمراره وفي هذه السياسة المتشددة يضع نهايته ويقوم لحده .

أما الدرس الوحيد الذي تعلمناه من هذه الأحداث – نحن فرنسيي الوطن الأم – فهو أن الاستعمار يعمل الآن على هدم كيانه ، ولكنه مازال سادراً في تعكير الجو . لأنه عارنا ، وهو يتنكر لمبادئنا ويظهرنا بساخر أمام العالم . انه ينشر بيننا وباء العنصرية ، كما أثبتت ذلك حوادث « مونييه » أخيراً وهو يفرض على شبابنا بذل حياتهم رغماً عنهم من أجل مبادئ نازية نحاربها منذ عشر سنوات ، وهو يحاول أن يبرر أعماله الوحشية بمخلق الفاشية في داخل بلادنا ، فرنسا ذاتها ، وأن مهمتنا هي أن نساعد على أن يلفظ أفساسه الأخيرة لاني الجزائر وحدها ، بل حينما وجد وأنى كان ، ولا شك أن الذين يتادون بالتخلي عن الجزائر هم أناس بلهاء ، فليس لنا أن نتخلى عما لم نملكه قط . بل الأمر على العكس هي أن نقيم مع الجزائريين علاقات

جديدة . . علاقات بين فرنسا الحرة والجزائر الحرة . . ولكن فلنحذر
هذا الخداع المغلف بالإصلاح فقد ينأى بنا عن السبيل الذي رسمناه .

لأن الاستعماري الجديدى هو لإنسان يخطط فى مناهات الضلال ما دام
يعتقد أنه فى الامكان تحسين النظام الاستعماري أو هو انسان يتسم باللؤم
والمكر ، فهو يقترح الإصلاحات لأنه على يقين من أنه لامتع من ورائها .
لأن الإصلاح سيتحقق من غير شك ولكن الشعب الجزائري هو الذى
سيحققه .

لأن الشيء الوحيد الذى يجب أن تقدمه للجزائريين اليوم هو أن نؤازرهم
فى جهادهم لتحريرهم وتحرير الفرنسيين من وصمة الاستعمار البغيض .



شهود من المجندين .

لقد نشرت في الفترة الأخيرة بيانات ووثائق عن وسائل السلام التي تبناها فرنسا في الجزائر . وذلك في كتاب عنوانه « شهود من المجندين » *Des Rappels temoignent* فهل اطلعتم عليه ؟ ؟

لن هؤلاء العائدين من المسيحيين كهنة ورجال دين مجندون . ومن المحتمل أن تختلف آراؤهم في السياسة وتباين رغم أنهم لم يذكروا لنا عنها شيئاً ولن تكن رغبتهم جميعاً الكشف عن هذا القرح — الذي قثا في الجيش ولن لم يعمه كله ، والذي أصبح من المستحيل تحديد مكانه بالضبط — وعن ممارسة الدكتاتورية العنيدة وأساليب العدوان والاستغلال والقسوة ، فهناك تسلب الأموال وتنتهك أعراض النساء ، وينتقم من المدنيين بممارسة إبادة الجنس وقتل الجماعات دون أدنى محاكمة ، ويسامون أشنع أدوات التعذيب في استجوابهم للإدلاء باعتراف أو تقديم معلومات .

والحق أن هؤلاء الشهود تحدثوا في صراحة مذهلة ففضحوا جميع جرائم الحرب التي شهدوها بأعينهم ولسوها بأنفسهم .

لن هذه الشهادات العادلة ، المنصفة التي يميزها أشد الناس لمجراما ، لأنها تؤلف وثيقة رهيبة ، وأن قراءتها أمر عسير ، فطالبا يغالب نفسه

للإنتقال من سطر إلى سطر ومن فقرة إلى فقرة .

وبالرغم من ذلك العناية المعنى فإني أوصيكم بقراءة هذا الكتيب ،
أوصى جميع الذين لم يقرأونه للآن بالقراءة ، كما أتمنى أن يقرأه جميع
الفرنسيين ، ذلك لأننا مرضى نعاني من داء وبيل .

لن فرنسا المحكومة ، المأخوذة بأحلام مجدها التليد من غير أن تستشعر
الحجل ، تتخبط وسط ظلام دامس وتحت وطأة كابوس ثقيل لا يستطيع
منه حراكا ، فإما أن نرى كل شيء أمامنا بوضوح تام وإما أن نتفجر
بالسخط والغضب .

فبذثمانية عشر عاما نرى أن بلادنا كانت فريسة لما أسماه القانون
(عملية قتل المعنويات) والحق أن قتل معنويات أمة لا يتأتى أولا بتعطيم
معنوياتها وإنما يكون بانحطاط أخلاقها .

أما الوسيلة فلا يجهدنا أحد ، حين ألقوا بنا في مغامرة حقيرة أوجح إلينا
شعورا بالذنب الاجتماعي .

ولكننا ندلى بأصواتنا وفي أيدينا السلطات ونستطيع بطريقة ما أن
نسحبها . فإن ثورة الرأي العام تستطيع أن تسقط الوزراء وينبغي أن
نكون على علم بالجرائم التي ترتكب باسمنا حتى نستطيع إيقافها ، وهذا
الشعور بالذنب الذي يرقد في نفوسنا من غير أن يتحرك ينبغي أن نضعه
في حسابنا وأن نذل ونسفل لكي نستطيع احتماله .

على أننا لم نتحط إلى مثل هذا الدرك حتى نسمع صراخ طفل معذب

فلا تتألم ولا تشعر بهول المصاب (١) .

وقد يسهل علينا أن نهون من هذا الأمر لو أن هذه الصرخات تطرق
أسماعنا بالفعل ، ولكنهم في الواقع يسدون إلينا جيلا بكلماتها عنا .

ليست القصة هي التي تقتل معنوياتنا أو البغض والحقد وإنما هي كتمان
الحقائق عنا حتى نعيش في ظلام لا أول له ولا آخر ، وقد نسهم نحن أنفسنا
في الإبقاء عليه .

لأن حكمانا بمرصهم الشديد على توفير الراحة لنا لا يتورعون عن
الأيزودونا بالمعلومات والحقائق الصحيحة بتعمدهم لمخاطبنا أو تصفيتنا .

فتلا حين يقتل الثوار أسرة أوربية لاتقل إلينا الصنخف شيئاً من أخبار
هذه الجزرة حتى ولا صور الجثث والأجساد الممزقة ، ولكن حين لا يجد
حام مسلم أى ملجأ من جلاديه الفرنسيين غير الانتحار فإن الخبر يشار إليه
باقتضاب وفي كلمات قلائل (حرصاً) على حساسيتنا .

فالتناق والحداع والسكذب واجب على ناقل الأخبار في فرنسا ،
والجرعة الوحيدة هي تكبير صفونا .

ولقد أكدوا ذلك الواقع للسيد بايرجا Peyerga فلن نجد في الجزائر
من يمكنه إنكار الأحداث التي نقلها إلينا ، وما أخذوه عليه فحسب أنه
رواها لنا نحن الفرنسيين .

وهناك أيضاً جنود فرنسيون يذبحون في شوارع مدن الجزائر تحت

(١) تراجع الصفحتان ١٠ و ٥٩٩ من كتاب (شهود من المجندين) .

أنتظار السكان الأوربيين المتعطشين لإثارة الحرب . ولكن هذا ليس من شأننا .

لن حقيقة لإفريقية هي خمر قوى أسر لا نستطيع رؤوسنا المرهفة إجماله :
فاذا يصيب المستوطنين إذا ترنحت البلاد الفرنسية ؟

لن الهدوء هو ما نحتاج إليه ، ونحتاج أيضاً إلى فترة استجمام وبعض ألوان التسلية : فنذ عهد لويس السادس عشر أصبح كل فرنسي يتما ، وأن حكومة موليه تعرف حداد طبقتنا البرجوازية وتقاسمها لياها ، وهي على استعداد لتقديم أية تضحية . فقد نصبت ملكة إنجلترا على عرش فرنسا لمدة ثلاثة أيام فما ألد ذلك وأجله !!

لن الناس يتحدثون فيما بينهم من غير أن يعرف بعضهم بعضاً ، وهم يتماسكون بالأيدى ويرقصون . وبالرغم من ذلك فإن في الجزائر أبطالاً مكافئين يواصلون جهادهم ، فليس عند الجلادين أيام عطلة أو أعياد فإن الإذاعة تحمل إليهم آيات جنودنا فيقولون لأنفسهم : « أما وقد حصلوا الآن على غايتهم فليتركونا وشأننا » .

وقد توجهت الملكية في أثناء استراحتها إلى قصر وندسور فإذا فرثا وهي في سورة الحب والمرح تسقط لعياء وتلازم الفراش ، فإن كان من الحكومة الفرنسية إلا أن أشارت إلينا من طرف خفي وهي تسمى على حذر هامسة : « لا تعلقوا نومها » !

وبالرغم من هذا فإذا أتيح لواحد منا أن يستيقظ من سباته ، وأن يسأل ممرضيه فسرعان ما تعد الحكومة إلى حيلة أخرى ، وبأسرع ما يمكن تؤلف لجنة تنحصر مهمتها في التضييق من مسؤولياتنا وأن تقول لنا :

« هل تجاوزنا الحد ؟ وهل حدث منا سوء تصرف ؟ »

ربما ، ولكنها مرة أو مرتين ، ولا بد أن تقع أخطاء في الحروب .
ثم خبرونا : ما الذى يتفلكم ويقلق بالكم ؟ لأنكم تعيشون بعيداً عن
الجزائر ، ولا تعرفون القضية على حقيقتها ، فأولوا تفكيركم
لاذن هذه اللجنة التى سنكونها من أشخاص متصفين بالطيبة متخصصين
في حالات الوسواس وتلقى الضمير ، فابلغوها ما ياوركم من قلق ،
وسوف تنقله هى الى الجزائر ، أما أنتم فاموا قريرى العين مرتاحى
الضمير .

ولكن لينا نستطيع النوم ، أو نستطيع تجاهل كل شىء ! !
لينا منزلون عن الجزائر بحزر من الصمت ! ! وليتهم يستطيعون
خداعتنا ! !
لن الأجنبي قد يستطيع حيثذ أن يشك في ذكائنا ، ولكنه لن يشك
في سلامة ضمائرنا .

والواقع أننا لسنا سليمى الضمائر . لانا قذرون . لن ضمائرنا لم تعكر
وهى مع ذلك مبللة . وحكامنا يعرفون ذلك حق المعرفة . وهم يريدوننا
على هذا النحو . لن كل الذى يريدون أن يتاح لهم بهذه الرعاية والعناية
والتحفظ هو اشتراكنا فى الجريمة تحت ستار من الجهل الزائف ، فالناس
جميعاً قد سمعوا بأساليب التعذيب ، وتسربت هذ الأنباء الى الصحف
الكبرى رغم كل شىء وكل رقابة . ونسرت صغرى الصحف التى تتسم
بالشرف بعض شهادات مختلفة .

وتداولت الأيدى نشرات عديدة ، وعاد جنود يتحدثون عما شاهدوه
ولكن هذا هو ما يخدم الذين يعملون على لأفساد المعنويات وزلزلة القيم :
لأن كل شىء يتوه أو يثبت فى الكتل البشرية ، ويجب أن تمهد السبل
للأنباء الواردة من هنا وهناك ثم تلتوى بها السبل الضيقة المتداخلة ويقضى

على الأبناء ، أما الصحف والدفترات فلا تقرأها غالبية الفرنسيين لأنهم لا يستطيعون قراءتها ، وإنما هم يعرفون أشخاصاً بأعينهم يقرأون لهم ، وكثيرون منا لم يحدث أبداً أن استمعوا إلى مجند وهو يتكلم ، وإنما نقل إليهم ما كان يرويهِ بعض المجندين المائدين .

وهذه الشهادات البعيدة المتناقلة في تواتر تكذب رسماً ، ثم تتضاءل في أثناء تداولها تدريجياً . وهنا ندخل في دور التساؤل وبالأسف ! لماذا نصدق كل هذه الروايات ؟ ؟ أين هي الأدلة ؟ أين هم الشهود ؟

أما الذين يقولون أنهم مقتنعون ؛ فلا نهم كانوا كذلك من قبل . صحيح أنه لا يمكن رفض جواز حدوثها ولسكن علينا أن ندرت وأن ننتظر ، وعلينا ألا نصدر الحكم قبل أن نتأكد ، ولإذن فنحن لا نحكم ولا نستعلم كذلك . فجرد أن نحاول الحصول على أوراق الدعوى حتى يتحول مجتمعنا الواضح إلى غابة بكر : نسمع فيها دوى الطبل من مسافة بعيدة ، وبشكل غامض ، وإذا أردنا الاقتراب من مصدر الدوى رأينا أنفسنا نسير في حلقة مفرغة ثم نكتفي بأن نقول : يكفيننا ما نتحمله من هموم شخصية ولا داعي لتحمل هموم الآخرين .

إن الذي قضى يومه في السكد والعمل وقابل في مكتبه كثيراً من مضايقات الحياة اليومية ، ليس ملزماً بأن يقضى السهرة في جمع الأخبار عن العرب ومتاعبهم .

وهذه هي أول أ كاذبينا - ليس على الذين يفسدون المنعوتات إلا لأن يقفوا معاً ويقولوا : لأننا سننجز العمل بأنفسنا . والحق أن الهموم الذاتية لا تحول بين المرء وبين قراءة الصحيفة اليومية بعد العشاء ، والحكم على القضايا العامة يلهى عن القضايا الخاصة .

ولن ذرف الدموع أو الاستسلام لعسر هضم غنيف ينسى الغضب
المكبوت في النفس طيلة النهار . إن الصحف تخايلنا : فهي تريد أن
تدخل في روعنا . أتأطيون... وهنا يكمن الكذب ، وتبريره يسير فإننا
تنقصنا الأدلة ولذلك لانستطيع أن نصدق شيئاً . غير أننا لا نبحت عن هذه
الأدلة لأننا تقسر على المعرفة . وما الذي كان يبنيه الذين يقومون على إفساد
معنوياتنا ؟ منهم يغنون ذلك ولا شيء سواه : جهلاً قائماً على الغدز ،
ولا يمكن التجاوز عنه ، لأنه يدفعنا إلى طريق الهوان ويقربنا شيئاً فشيئاً من
هؤلاء الذين كان يجب علينا أن نحكم عليهم ، حتى إذا اقتربنا منهم كل
القرب لم نلبث أن نصيح : الناس إخوة ، « والناس سواسية » ثم نرتجى
في أحضانهم .

أما كذبتنا الثانية فقد أعدها لنا . لن الفخ يتمثل في اللجزة المشكلة
وحبذا لو أمكننا أن نثق بها ، ولكن على فرض أننا نريد ذلك ، فن أين
نستمد المداع اللازم ، وما فائدة أية لجنة حين تزداد المذابح والجرائم
في جميع أنحاء الجزائر ؟ من الذي سينقل إليها وهي في مدينة الجزائر ،
ما يقترف في الريف ؟ ومن الذي يبادلها الرأي ؟ وفي أي شيء ؟ أتراها
نستذكر الناس بحقوق الإنسان ؟ إن الجميع يعرفونها بما فيهم السيد
« لاكوست » إن القضية تتمثل في الاعتراف بحقوق الإنسان : فكيف
يراد لها أن تبلغ ذلك ؟ .

وإذا كان الوزير المقيم لا يستطيع أن يحد من الأعمال غير المشروعة
فهل يظن أن تعيين بضعة مستشارين معه سيمكنه من القضاء على هذه

الأعمال ؟ وإذا كان هو نفسه يستطيع أن يقضى على الجرائم والمآثم ،
فا حاجته إليهم ؟ الحقيقة هي أن الحكومة قامت بحركة ما ، فصرح السيد
موليه بأنه « قلق مضطرب » وأنه يبغى التنور في الموضوع كله . وإذا
نحن صدقناه كان لنا في ذلك عذرنا :

إن الكلمة الإنسانية موضوعة لكي تصدق . وإذا نحن لم تصدقه
كان لنا عذرنا :

فكلمة السيد « موليه » موضوعة لتكون مثار شك وريبة . لئنا
نعرف أن لجنة التحقيق ستكون من رجال لا غبار عليهم ولا مطعن فيهم
ونعرف أيضاً أنها لن تستطيع أن تؤدى أى شئ :

لأن نزاهتهم تعيدنا في أنها تقنع عجزهم ، ولذلك فنحن نرفض أن نمنح
الحكومة تقبلاً ولأن كنا نتمتع عليها لكي تبدد شكوكنا .

مجرمون . مجرمون مرهين . لئنا نشعر بأننا فريسة ضيق واضطراب ،
لأن لم يكن هو الهول بعد فإنه النذير بأن الهول قريب منا وأنه يتهددنا
لدرجة أننا لا نستطيع ولا نريد أن نلقاه وجها لوجه . ونجأة يلعب بريق
يخطف الأبصار فنهتف : « هل كان هذا صحيحاً ؟ » .

وهكذا يجد كل منا جاره مريباً ويخشى أن يبدو هو مريباً أمام
جاره . قد يختلف بعض الأصدقاء في الرأي حول قضية الجزائر ولكن
ذلك لا يحول دون احترام بعضهم لبعض . ولكن ما القول في الإعدام
بالجملة أو لمباداة الجنس ؟ وما القول في ألوان التعذيب المختلفة ؟ هل من
الممكن الاحتفاظ بصداقة هؤلاء الذين يقرونها ؟ لمن الجميع واجون ينظر
بعضهم إلى بعض وكل منهم يحدث نفسه متسائلاً « ما الذى يعرفه ؟ ما الذى

يظنه ؟ ما الذى اعتزم أن ينسأه ؟ « لأن الناس يخافون الحديث فيما بينهم إلا إذا كانت أفكارهم متشابهة متقاربة . فإذا حدث واكتشفت مجاملة خبيثة من إنسان شد على يدي فإن هذا الإنسان لا ينطق بشيء ؛ ومن لا يتفوه بشيء عد موافقاً « فالكوت رضا » كما يقولون ، غير أنى أنا الآخر أمسك عن الكلام .

ولكن لنفرض أنه هو الذى كان يأخذ على ضعفى وتخاذلى ؟ .

لأن الحذر يفرض علينا عزلة جديدة : وهذه حالنا فنحن نعيش في اتصال عن مواطنينا خشية أن نخط أو يحط من قدرنا .

والحقيقة أن هذا شيء واحد ، فنحن جميعاً متشابهون ونحن نتعرج من أن نسأل الآخرين لأن إجاباتهم ستكشف عن انحطاطنا وضعفنا فتبلاً إذا همس أحدهم بهذا السؤال ليتحطل من قلبه ، ويلقى بأثقاله ويرر جراً عنا :
والتوار ؟ ألم يرتكبوا الفضائح ؟

تفهم فجأة أن الرعب والظلام والصمت المطبق قد أهوت بنا مرة أخرى إلى غصور التار البربرية .

وأن نحكم على الفرنسيين بوصف واحد هو أنهم ذوو ضمائر فاسدة ربما نستنتى منهم السيد « موليه » !

وهذه الضمائر هي التي تنزع بنا إلى الإجرام لأن تشتت فكرنا ، ولعبة « النهاية » التي نلعبها في داخل أنفسنا . وهذه المصايح التي تخفت ضوءها ، وهذا الملق المؤسف ، ينبغي ألا نجد فيها جيماً طريق الخلاص بل تذيير ترد عميق ، لأننا نهوى إلى قاع البحر وقد شور نائرتنا عندما

نرى الآخرين يصدر عن حكمهم القاسى علينا ، فيجرنا غضبنا شيئاً فشيئاً إلى المشاركة فى الجريمة :

ليس من حق الولايات المتحدة الأمريكية أن تتكلم فإنها تعامل هى الأخرى الزوج فيها معاملة شاذة .

هذا صحيح فإنه لا يحق لأمريكا أن تتكلم ، ولا يحق كذلك للسويد التى ليست دولة مستعمرة ، لا يحق لأحد أن يتكلم .

أما نحن فيجب علينا أن نتكلم ، وهاتحن أولاء لا تتكلم . إن لنا مراسلين يترفعون لا تنقصهم الشجاعة ، يدلون علينا بما يعرفون كل يوم أو كل أسبوع فإذا نحن نسعى إلى هدمهم أو سجنهم .

وهكذا يقل الاستماع إليهم ولكن ما دهمى الأصوات الشريفة المدوية التى أخذت تترنم ترنيمة الأوغرن فى نوفمبر الماضى؟

لقد فاضت أنفسنا جسرات ، وصعدنا حر الأقباس ووزأرنا لوقف التدخل السوفيتى فى المجر (١) ، ما دهمى هذه الأصوات اليوم فلا تفضى إلينا بكل شىء عن أنفسنا ، عما نفعلة فى الجزائر لأنكم تحيطون بكل دقيقة وجليلة وليس لكم عذر الجهل ، والوثائق والأدلة تحت أسماعكم وأبصاركم .

إن الأمر يتعلق بنا اليوم ونحن بحاجة إلى أن نعرف وأن نصدق، لأنكم وحدكم بيديكم خلاصنا من هذا الكابوس الجاثم على صدورنا ولما قدنا من هذا العار الذى ألصق بنا ولكنكم وأسفاه ساكنون سكوت القبر ولأنه لتقدير خاطيء لا يحكم علينا من صمتكم اليوم ، بل من ثورتكم فى نوفمبر الماضى .

(١) كان ذلك عام ١٩٥٦ « لجنة كتب ثقافتنا » .

لماذا ؟ لأننا صامتون الآن ، ولأننا منوضع في مأزق حقيق ، وفي موضع سبق لنا أن تصدينا له نحن أنفسنا بطلالنا السيء . لأنها براءة مصطنعة ، وهروب من الحقيقة ، ومجاملة مردولة ، وعزلة رهيبية وصمت مطبق ومشاركة في الجرم مرفوضة ومقبولة .

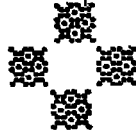
وهذا ما أسميناه عام ١٩٤٨ بالمسئولية الجماعية إذ ما كان ينبغي للشعب الألماني في تلك الفترة أن يجهل وجود معسكرات التعذيب ، وكنا نقول :
كفى هذيانا . لقد كانوا يعرفون كل شيء ! « وكنا على صواب فقد كانوا فعلا يعرفون كل شيء واليوم فقط نستطيع أن ندرك ذلك ، فإننا أيضاً نعرف كل شيء . »

لمن معظم الألمان لم يكونوا قد شاهدوا « داشو » ولا « بوشانوالد » ولكن الأنباء قد تواترت إليهم من أناس شاهدوا الأسلاك الشائكة أو وقفوا على ملفات سرية مطوية في لحدى الوزارات ، وقد كانوا مثلنا يعتقدون أن هذه الأنباء غير موثوق بها مطعون في صحتها فكانوا يمسكون عن الخوض في الحديث وكان يحذر بعضهم بعضاً . أستطيع بعد هذا أن نجرؤ على الحكم عليهم ؟ أو أن نجرؤ على تبرئة أنفسنا ؟

لمن علينا أن نقرش الأبسطة في ساحة « الكونكورد » حتى نجعل العالم على أن ينسى أن هناك أطفالا يسامون سوء العذاب باسمنا وأتانا لانرفع صوتنا استنكراً لهذه الأحوال البشعة لأنه لم يفتنا الأوان بعد لإحباط عمل هؤلاء الذين دأبوا على هتك شرفنا القومي وتلويت سمعتنا ولايزال من الممكن تحطيم الدائرة المهنية التي أغلقت علينا من مسئولين غير مباينين ، هذه السذاجة الحيثة ، هذا الجهل الذي هو المعرفة ، فلننظر

إلى الحقيقة ، فهي التي مستكن كلامنا من أن يعمل علانية على وقف الجرائم
المقرفة ، ولما أن تقبناها وترضى عنها ونحن بكامل وعينا .

من أجل هذا أصبح لزاما على أن أرشد الجمهور إلى كتاب المجتدين
العائدين ، ففيه الحقيقة المرة ، والهول المفرع ، هولنا نحن ، فنحن
لن نستطيع أن نراه من غير أن نتخلص منه ونقضى عليه قضاء مبرما .



الجلادون !

لقد كان الفرنسيون في عام ١٩٤٣ — حينما كان مصير الحرب معلقاً في ضمير الغيب — يُمانون من القلق والألم . وعلى الرغم من أننا لم نكن تفكر كثيراً في المستقبل إلا أننا كنا نجمعين على أن أمراً واحداً يبدو مستحيل التحقيق ألا وهو أن يكون في استطاعتنا أن نجعل رجالاً آخرين يضحون بما نمانيه في تلك الفترة الحالكة .

لأن كلمة المستحيل ليست كلمة فرنسية الأصل : فالجزائريون في عام ١٩٥٨ أصبحوا يسامون سوء العذاب بشكل منظم ومستمر ، والكل على علم بما يحدث من لاكوست إلى مزارعي لا فيرون . . ولا يستطيع أحد أن يتكلم أو يخوض في مثل هذا .

هذا ولأن كانت فرنسا تحت الاحتلال أكثر بكياً منها الآن ، بالرغم من أنه كان لها العذر إذا هي حملت السلاح .

لقد حكموا علينا في الخارج بأننا شعب نسير في طريق الانحلال والانحدار منذ عام ١٩٢٩ في رأي بعضهم وفي رأي الآخرين منذ عام ١٩١٨ .

وإيه لقول مرتجل فأنا لا أجزم في سهولة بانحدار شعب ولأن كنت على يقين من خبله وفشله الذريع .

وفي أثناء الحرب عند ما كانت الإذاعة الاتكليزية أو المنشورات السرية

تحدثت عن « أورا دور » كنا نتظر إلى الجنود الألمان الذين كانوا يتجولون في الطرقات نظرة بريئة وكنا نقول أحياناً : لانهم على كل ماحدث رجال يشبهوننا فكيف يكون باستطاعتهم أن يفعلوا ما فعلوا ؟

وكنا نفخر بأنفسنا لأننا عجزنا عن الفهم .

واليوم نعلم أنه ليس هناك شيء قابل للفهم .

لقد تم كل شيء في غفلة واستسلام غير ملحوظ وعندما تمكنا من رفع رؤوسنا ونظرنا في المرأة وجدنا وجهاً غريباً منفراً هو وجهنا .

إن الفرنسيين يكدثفون في غمرة هولهم ، هذه الحقيقة الزهية : فإذا لم يكن هناك ما يحصن أمة من نفسها لأمراض عريق ولا رصيد من الأمانة ولا قوانينها الخاصة بها ولذا كانت خمس عشرة سنة كافية لتحويل الضحايا إلى جلادين، فذلك لأن الظرف هو وحده الذي يفصل في هذا الأمر فوق الظروف يستطيع الفرد في أي مكان وفي أي زمن أن يتحول إلى ضحية أو إلى أن يكون جلادا .

إن الذين استسلموا من غير أن يضطروا إلى أن يسألوا أنفسهم هذا التساؤل : هم السعداء . « آبراني أعترف إذا هم تزعموا أظفاري ؟ » وأسعد من هؤلاء ، وأولئك الذين لم يشبوا عن الطوق بعد ولم يضطروا إلى أن يسألوا أنفسهم هذا السؤال الآخر :

« ما الذي أنا فاعله ؟ إذا تراءى لأصدقائي ولخواني في امتشاق السلاح أو رؤسائي إلى انتزاع أظفار عدو أمام ناظري ؟ »

وهؤلاء الشباب الذين يزرع بهم في المواقف الحرجة ، ماذا يعرفون عن أنفسهم ؟

القرارات التي تتخذ هنا ، يظنون أنها عندما يحين الأوان ستبدو لهم مجردة هواء ، وإن وضا غير مرتب سينعقد النظر في قضيتهم كلها من جديد وان عليهم أن يقرروا هناك وحدهم ، مصير فرنسا ومصيرهم . وهام أولاد يروحون وآخرون يقدون وقد أقرروا بعجزهم عن إمكان التغيير فاحفظوا عليهم بالصمت وقد انطوت أضعالمهم على الحقد والموجدة ثم تولد الخوف من النفس ومن الغير ويحتاج جميع الأوساط ويلم جميع الفئات فإذا الضحية والجلاد ليسا إلا صورة واحدة هي صورتنا .

وفي الحالات القصوى ، تكون الطريقة الوحيدة للامتناع عن تمثيل أحد هذين الدورين هي أن نطالب بالآخر .

والاختيار بين هذين الأمرين لا يفرض على الفرنسيين وهو لم يفرض حتى الآن ، ولان عدم التحديد هذا يتقل كاهلنا : وبسببه تكون « الجرح والسكين » معا فالهلع من أن يكون السكين والفرع من أن تصبح الجرح وكلاهما يتبادلان التأثير والقوة وتصحو ذكريات راقدة

فند خمسة عشر عاما ، كان أشجع المقاومين يخشون الألم أقل مما كانوا يخشون استسلامهم . وكانوا يقولون :

حين يغشى الضحية الصمت فإنها تنفذ كل شيء ، وحين تتكلم فليس لأحد الحق في أن يحكم عليها ، حتى الذين لم يتكلموا . ولكن الضحية تزوج جلادها انها امرأته ، وهكذا يفرق هذا الزواج في ليل الوضاعة وقد كر هذا الليل الوضع ، عاد إلى « البيار » في كل ليلة . ولانه في فرنسا سواد قلوبنا وإن أية دعاية هامة خائفة تبجح لنا أن نسمع منها أن جميع الناس يتكلمون .

هذه هي ألوان التعذيب التي تبررها الجبهة الإنسانية فإدام كل واحد منا خائناً بالفطرة ، فالجلاء الكامن في كل منا يخطفه الانزعاج والتأثر وخاصة أن عظمة فرنسا تملئ علينا ذلك . . وأصوات ناعمة معسولة تسر لنا ذلك كل يوم :

المواطن الصالح هو ذو الضمير الطيب أما صاحب الضمير الشرير فلا بد أن يكون من دعاة الهزيمة والتردد .

وسرعان ما تتحول الدهشة إلى قنوط . فإذا كانت الوطنية هي أن نلقى بأنفسنا بين مخالب الضمة ، وإذا لم يكن هناك أي حاجز في أي مكان يحول بين الأمم أو الإنسانية جميعها وبين أن تتردى في الحيوانية ، فلماذا لماذا تبذل هذا الجهد لتحافظ على إنسانيتنا ؟ أن الحيوانية هي حقيقتنا .

ولكن لماذا لم يكن أي شيء آخر صحيحاً ، لماذا كان لا بد من الإرهاب أو أن نموت رهبة وخوفاً ، هذا الجهد الذي تبذله من أجل الكفاح في سبيل العيش ومن أجل أن نكون وطنيين ؟ .

لقد صبوا هذه الأفكار في رءوسنا صبا ، وأنها لأفكار يلقها الغموض ويشملها الخطأ . لأنها تخرج كلها من هذا المبدأ نفسه :

الإنسان هو الذي لا إنسانية فيه ولأن هدفهم من وراء ذلك ، هو اقتناعنا بمجزنا ، وأن تصل هذه الأفكار إلى هدفها مادنا لا نواجهها والحق أنه يجب أن يعرف عنا في الخارج : أن سكوتنا لا يعني قبولنا لما يجري في الجزائر . إن صمتنا مرده إلى الكابوس الذي يضعونه ويحسمونه ويوجهونه ولقد كنت أعرف ذلك من قبل . ولكني كنت في انتظار الدليل القاطع وهأنذا قد وجدته .

منذ حوالي خمسة عشر يوماً ، ظهر كتاب في إحدى دور النشر تحت عنوان (الاستجواب) ومؤلفه هو (هنري أليج) الذي لما يزل معتقلاً إلى اليوم في أحد سجون الجزائر ، وهو يروي ، من غير تعليق أو تعقيب وبدقة فارقة أنواع الاضطهاد والتعذيب التي اکتوى بها من أجل إجباره على أن يعترف . ولقد (اعنى) الجلادون به كما وعدوه بذلك هم أنفسهم : فقاسى عذاب العطش ، تماماً كما كانوا يفعلون أيام (البرنقيلية) . .

وأضيف إليه هذه الأفانين الجديدة التي أدخلها عصرنا المتمدين ، عذاب السكى بالنار وحرقة العطش .

لأنه كتاب لا تنصح النفوس الحساسة ذات المشاعر المرهقة بالاطلاع عليه . والواقع أن الطبعة الأولى — وهي عشرون ألفاً — قد نفذت . وبالرغم من أن هناك طبعة ثانية تمت على عجل ، فقد عجز الناشر عن تلبية الطلب الملح ، فان بعض المكتبات تباع من النسخ ما يتراوح بين خمسين ومائة في اليوم .

والذين يجسرون على الإدلاء بشهاداتهم حتى الآن هم الذين قضوا حياتهم مع إخوتهم وإخوتنا من الجلادين ، ولم يتبينوا من الضحايا غالباً سوى صراخهم وأنيبهم من عذاب جراحهم وآلامهم .

وكانوا يصفون لنا هؤلاء الساديين الذين استعذبوا تعذيب الناس ، وكيف انجبوا يمزقون الأجسام الطاهرة .

ولكن ما الفارق بيننا وبين هؤلاء الساديين ؟

لا شيء مادامنا نسكت على جرائمهم : وكان غضبنا يبدو لنا صادقاً . ولكن هل كنا نحفظ به لو كنا قد عشنا هناك ؟ أما كان هذا الغضب يتحول إلى استسلام مر كئيب ؟

لقد كنت من ناحيتي أعكف على القراءة لأن واجبي يدفعني إلى ذلك
وكنت أبتسر أحياناً بعض ما أكتب، وكنت أنظر بعين الاحتقار إلى هذه
القصص التي تضعنا في قفص الاتهام من غير مشقة ولا راحة ، والتي لم تكن
تترك لنا أي بصيص من أمل !

أما مع هذا الكتاب « الاستجواب » فإن كل شيء تبدل : إن « أليج »
يوفر علينا مضاضة اليأس وحرمة الحجل لأنه ضحية ولأنه كان فوق مستوى
العذاب أو فوق مستوى البشر .

وهذا التحول لا يتم من غير روح السخرية والحزن . لقد عذبوه باسمنا ،
ولنا لنسترد بظلمته بعضاً من فئراننا : لنا فخورون بأن يكون فرنسياً .

لئن القراء يتقصصونه بشغف ، ويظنون معه حتى قة العذاب والألم ،
ويصمدون وإياه أمام الوحدة والعري أترامم جديرين ؟ أترانا جديرين
بذلك حقاً وحقيقة ؟

وتلك قضية أخرى ؛ أما الشيء المهم الذي يمتد به هو أن الضحية تعمل
على تحررها لاذ هودنا إلى أن نكتشف أنفسنا كما اكتشفت هي نفسها ،
لأننا في مقدورنا أن نتحمل كل شيء . . . ولزاماً علينا أن نتحمل .

لأننا نذهل وتدور رؤوسنا عندما نطل على هذه الهوة .. هوة الحيوانية .
ولكن يكفي أن يطالبنا رجل صارم عنيد يضطلع بعهمة الإنسان لينقذنا
مما أصابنا من دوار .

لئن « الاستجواب » لم يكن بكل بساطة إلا جرعة خسيصة بشعة
ارتكبتها جناة والقون في الإثم ، ضد بشر آخرين ، وباستطاعة سواهم
ومن واجبهم أن يقضوا عليها .

إن انعدام الإنسانية لا يوجد في أي مكان ، إلا في ظل الكابوس الجاهل
على الصدور التي يتولد من الخوف .

والحق أن شجاعة ضحية واحدة وهدوءها كانت السبيل إلى صحوتنا
لنتكشف عن حقيقتنا .

إن « أليج » يستل التحذير من الليل الذي يواريه . فلنتقرب لنتنظر
لديه في وضوح النهار .

فا هؤلاء الجلادون أولاً ؟

أهم ساديون ؟ أم هم ملائكة أطهار قد تملكهم الغضب ؟

أم هم سادة الحروب ذوو الأهواء الراجعة ؟

إذا صدقناهم وآمنا بما قالوا فهم خليط من كل أولئك !

ولكن الواقع أن « أليج » لا يصدقهم .

إن ما نستخلصه من الأحاديث التي ينقلها إلينا أنهم يودون أن يقنوا

أنفسهم ويقنوا الضحية بجهنمتهم وقدرتهم على الظلم . فهم أحياناً بشر

أعلنون يضعون ناساً تحت رحمتهم ، وهم أحياناً أخرى رجال عتاة أقوياء

وكل إليهم أمر ترويض أقصى اليهم وأضرارها توحشاً ، وأكثرها تراخياً

واستسلاماً ، البهيمية الإنسانية .

والمعلوم أنهم لا ينظرون إليها من قرب :

فالهم عندهم أن يشعروا السجن بأنه ليس من جنسهم : ولذلك يجردونه

من ثيابه ويربطونه بشدة ويهرأون جسده . ويعر به جنود جيئة وذهوباً

يصبون عليه اللعنات ويرمونه بأقذع السباب ويتوعدونه بالمذاب الأليم

المقيم .

ولكن أليج المرتجف من البرد القارس الموثوق إلى خشية ماتزال

سوداء لزجة من آثار في قديم يعيد هذه المسخر والمآتم إلى حقيقتها
التي تستوجب الرثاء .

لأنها مسرحيات يقوم بأدوارها ممثلون حتى فأصابتهم الفاشية الجاحمة
مسرحية . .

وهذا القسم الذي أقسموه بأن يقضوا على الجمهورية مسرحية أخرى . .
وكلمات « ضابط الجنرال م » التي تنتهي بقوله (لم يبق لكم إلا أن
تنتحروا) هي مسرحية أيضاً .

لأنها مسخر فجة ، يعاد تمثيلها كل ليلة بلا قناع أمام كل سجين ، ولأن
توقفت فترة ما فلتضيق الوقت : ذلك أن هؤلاء القمعة المرعبين مثقلون
بالأعباء ، وهم مرهقون لأن المساجين يصطفون واقفين بالقرب من خشبة
التعذيب ، ولا بد من وتهمهم بالحبال وفك قيدهم ومرافقة الضحايا من غرفة
تعذيب إلى أخرى .

ومن ينظر بعين أليخ إلى هذه الخلية القنطرة ، يدرك أن الجلادين
مرهقون بالعمل كل الإرهاق .

وقد يحدث أن يصنعوا الهدوء وأن يتعاطوا الحجر . وقد تراخوا فوق
جسد معذب ، ثم تراهم ينتفضون ، ويهبون واقفين على أقدامهم ، ثم يركضون
على غير هدى وكأنما أصابهم مس من الشيطان وينطلق من أفواههم أذع
السياب ثم يصرخون غضباً ، أنهم عصيون من الطراز الأول ، يقبضون
على ضحايا كثيرين ، واعتقادهم الجازم أنهم سيعترفون لهم من الركلة الأولى
وهؤلاء السجانون على جانب من الخبث والجنون لقرط ما يسد بهم من
الغضب وهذا مؤكد ، ولكنهم ليسوا سؤدين . أنهم في عجلة عاجلة ،
وهذا ما يتقدم حقاً من الجنون .

لأن كلا منهم يقف على قدميه متماسكا من جراء السرعة المكتسبة ،
فعلية أن يجري باستمرار أو يخور غير أنهم يحبون العمل المتقن . لأنهم عند
الزوم يدفعهم الحرص على تنفيذ الأوامر ولإرضاء الضمير المنى إلى درجة
ارتكاب جريمة القتل .

وهذا ما يثير ويحز في النفس في قصة أليج . لأن وراء هؤلاء السفاحين
الجنائز أو المضحكين عتوا أو قساوة تتجاوزهم وتتجاوز رؤسائهم أنفسهم .

ولقد كان من الممكن أن يكون حظنا كبيرا لو كانت هذه الجرائم
يرتكبها حفنة من الحاققين الحاقدين ولكن الحقيقة هي أن التعذيب يخلق
الجلادين .

وبعد هذا كله ، فإن هؤلاء الجنود لم يكونوا قد انخرطوا بعد في فرقة
الصفوة المختارة التي تقوم على تعذيب العدو المهزوم . ويصف لنا أليج
في بضعة أسطر أولئك الذين خبرهم عن يقين ، وهذا يكفي لتسجيل
مراحل التغير .

هناك الجلادون الأصغر سناً العاجزون الذين يتمتعون باضطراب وجزع
« هذا قطيع » عندما يضيء مصباحهم الكهربائي أحد المسجونين ثم لأن
هناك معاوني الجلادين الذين لم يشتركوا بعد في العمل ، وهم يمسون
بالمساجين ويدفعونهم في عنف وقسوة . . . وهناك من ينتظر لإسناد هذا
العمل لآليه منهم جميعاً قد غمرتهم الدوامة ، ولا معاذير لهم على الإطلاق
وهناك ذلك الأشقر من المنطقة الشمالية « ذو الوجه .السمح الخلو الذي
يستطيع أن يتحدث عن جلسات التعذيب أخضع لها أليج كما لو كان يتحدث
عن مباراة شائقة يذكرها في نشوة وعذوبة وفي غير مشقة : كما يفعل بالنسبة

بطل من « راكبي الدراجات . »

ولقد رآه « البج » بعد أيام من سجنه يقتل على السلم أحد المسلمين ،
ووجهه يغلي بالحقد والكراهية .

وهناك الذين يتسلون برؤية الانتفاضات التي تمرر معذباً بالكهرباء ،
ولكنهم لا يهتمون سماع صراخه وأنيته .

وهناك أخيراً المجانين الذين يطوفون ويدورون كورقة ميتة في دوار
فورانهم وعنفهم .

وليس في هؤلاء جميعاً من هو موجود بذاته . وليس فيهم من سيق
كما هو : لأنهم يمثلون لحظات تحول لا مفر منه .

فهناك فرق واحد بين أفضلهم وأدناهم فأولئك « زرق » وهؤلاء
قدامى . وسينتهي الأمر بهم جميعاً إلى الرحيل ، ولذا استمرت الحرب
فسيخلفهم آخرون ؛ شقر من الشمال أو سمر قصار من الجنوب ، يقومون
بمهام التعذيب ويتعادون العنف نفسه وتملكهم العصبية ذاتها .

وفي هذه القضية لا يبول على الأفراد : فإن هناك حقداً وضعياً . حقداً
موغلا في الإنسان يتقض في وقت واحد على الجلادين وعلى الضحايا فينحط بهم
مماً ويحط بعضهم بسبب بعض . وليس العذاب إلا صورة هذا الحقد وقد
اندرج في نظام وخلق لنفسه سبله الخاصة .

وحين يثار هذا الوضع في المجلس الوطني . تنور الضجة ويكبر الصخب

والضجيج ، ويعلو نباح بعض الأعضاء: « إنكم تهينون الجيش ! » وينبغي أن نسأل هذه الجراء النابجة مرة أولى وهي الأخيرة .

« ما دخل الجيش هنا ؟ » لأن من المؤكد أن التعذيب يقوم أيضاً في الجيش كما يقوم بين المدنيين وإن لجنة الوقاية لم تخف منا ذلك في تقرير لها هزيل ، وبعد ذلك : « أهو الجيش » الذي يعذب .

لأنها حماقة ! أظنون أن المدنيين يجهلون الوسائل الصالحة ؟ إذا لم تكن القضية إلا هذا فلنمنح شرطة الجزائر نقتنا . ثم إذا كانت هناك حاجة إلى التصريح باسم رأس عصاة الجلادين فلقد سماه المجلس الوطني كله ، فليس هو الجنرال « س » كما أنه ليس الجنرال « ا » ولا الجنرال « م » الذي ذكره أليج : بل هو السيد لاكوست صاحب السلطات المطلقة فكل شيء يتم بعد مشورته ويأمره سواء في « بون » أو في « وهران » : أن جميع الذين سقطوا تحت وطأة الألم وويل العذاب في مبنى « البيار » أو في مقصورة « س » إنما قضاوا بحبهم بإرادته ، ولست أنا الذي يقول ذلك : لأنهم النواب والحكومة .

والواقع أن القرح يتسع . فهو قد جاوز البحر ، بل إننا نقول في غير تردد إن الاستجواب يجري في بعض السجون المدنية في فرنسا ذاتها . ولا أخرى إذا كانت هذه الشائمة حقيقة ولكن لا بد أن انتشارها قد أثار السلطات العامة ، بدليل أن النائب العام ، في قضية ابن صدوق ، قد سأل المتهم علناً إذا كان قد عذب ، وقد كان الجواب بالطبع مصروفاً من قبل لأن التعذيب ليس مدنياً أو عسكرياً ولا فرنسياً على وجه التخصيص ، لأنه مرض يسود النصر كله ، فقد عرف الشرق والغرب جلادين . فلم يعض طويل وقت على تعذيب « فاركاس » للمجرمين ، ولا يخفى البولونيون

لن الشرطة عندهم كانت تلجأ قبل بوزنان إلى الاستجواب . أما ما كان يحدث في الاتحاد السوفيتي في عهد ستالين فإن تقرير خروشوف هو وحده آية على ذلك واليوم أتى دور قبرص والجزائر .

والحقيقة أن هتلر لم يكن لـألا رائداً من رواد هذا العصر .

هذا التعذيب الذي يتوارى بميوعة أحياناً ولكنه يطبق بانتظام وراء ستار من الديمقراطية يمكن تعريفه بأنه أداة نصف سرية . فهل تتوحد أسبابه في كل مكان ؟ كلا ، بلاشك ولكنه يقابل في كل مكان بالثبور والاشتمزاز . والحق أنه لا أهمية لذلك ، فليس لنا أن نحكم على العصر ولنكتف بأن نتظف أمام بابنا ، ولنحاول أن نتفهم ما الذي أحاط بنا ، نحن الفرنسيين .

لأنكم تعرفون ما يذكر أحياناً من صور التبرير حتى لا يندان الجلادون ، مهم يرددون أنه لا بد من تعذيب بعض الناس لكي يدلوا بأعترافهم التي قد تحفظ مئات الأرواح . وهذا نفاق لا يعوزه دليل . فإن «البيج» لم يكن ليرهايا ، وكذلك «أودين» . فهو معتقل بحجة أنه يعمل على الإخلال بأمن الدولة ، ولعمادة تشكيل جمعية منجاة .

أفن أجل المحافظة على الأرواح البشرية أحرقوا ندييه ، وشعر عضوه التناسلي ؟

لا : لقد أرادوا أن ينتزعوا منه عنوان زميله الذي آواه . ولوتكلم لزوجوا بشيوعي آخر خلف القضبان الحديدية : هذا كل مافي الأمر .

ثمّ منهم يعتقدون كل من يصادفهم ... فشكل مسلم تعرض للاستجواب ،
فمنهم من يقدم شهادة كاذبة أو يتهم نفسه سلفاً بجرّمة ما تخلصا من
العذاب .

أما أولئك الذين يستطيعون أن يتسكلموا ، فالمعروف أنّهم يصمتون
كلهم أو جلهم فلا « أودين » ولا « أليج » ولا « جروج » قد فتحو
أفواههم .

ولا شك أن جلادى « اليار » أوسع معرفة منا في هذا الصدد .

وقد قال أحدهم بعد الاستجواب الأول « لاليج » .

« لقد كسب الجولة الأولى على كل حال ليتيح لرفاقه الوقت الكافى
للتراجع » .

وقال ضابط بعد بضعة أيام :

« لقد استقر فى رؤوسهم منذ عشر سنوات ، أو خمس عشر سنة ،
لأنهم إذا قبض عليهم ، فيجب ألا يقولوا شيئاً : وليس هناك من وسيلة
لاقتلاع هذا التصميم من رؤوسهم » .

لعله كان يعنى الشيوعيين : ولكن أتراهم يظنون أن مناظلا فى جيش
التحرير الوطنى هو من غير هذه الطينة ؟ .

إن أعمال القسوة هذه لا تعود إلا بنتائج سيئة ، ولقد اقتنع الألمان
أنفسهم بذلك عام ١٩٤٤ . لأنها تزهق الأرواح البشرية ولا تعمل على
حمايتها .

ومع ذلك فإن الحجّة ليست كلها خطأ : وسيان هذا أم ذاك فانها تفضح

رسالة التعذيب : إن الاستجواب الذي هو أداة سرية أو نصف سرية ، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بسرية المقاومة .

وفي الجزائر، انتشر جيشنا في كل بقعة فيها : فنحن نملك الجنود والسلاح والمال ، أما الثوار فلا شيء يملكونه إلا الثقة وتأييد الشعب لهم ، ولقد عرفنا خبر الاغتيالات التي تمور بها المدن ، والكمان التي تقام في الريف .

وجهة التحرير الوطنية لم تحدد نشاطها وإنما هي فعل مافي استطاعتها ومقدورها . إن نسبة قواها إذا ما قورنت بقواتنا فإننا نعزرها عندما تقوم بهجاتها الفجائية . فخطتها أن لا ترى ولا تنتظر ولا تمس ، فثعارها « لأضرب واهرب » حتى لا يقضى عليها . ومن هنا كان ضيقنا : إننا نجد خصما سرىا .

فهذه قبلة تنفجر في الشارع ، وهذه رصاصة تتطلق فتجرح جندياً من جنودنا في الطريق ، فإذا سارعنا إليه لم نجد أحداً إلى جواره وإن كان لابد أن يعثر على مسلحين لم يروا شيئاً .

إن الحرب الشعبية ، حرب الفقراء ضد الأغنياء . تتميز بالصلة الوثيقة التي تشد بين الوحدات النائرة وبين الشعب ، وفي الوقت نفسه يصبح هذا الفيض من البؤساء بالنسبة للجيش النظامي والسلطات المدنية ، العدداليومي الذي لا يعد ، ويقض مضجع فرق الاحتلال من صمت أخرس صنع يديها فتدرك أن هناك لمرادة للصمت لا يمكن السيطرة عليها كسرهم كل مكان .

وكذلك لن يستمر الأغنياء في إحساسهم بانهم مطاردون وسط فقراء صاهتين ، وتجد قوى الأمن نفسها مرتبكة ، بل عاجزة عن مواجهة العمليات

الحرية الصغيرة إلا بالتطهير وحملات الانتقام ، ومواجهة الإرهاب بالإرهاب على أن هالك شيئاً خنياً : يجب دائماً الاستجواب والتحرى ، وانتزاع الكلام في كل مكان ومن أى إنسان .

إن التعذيب غضب لاطائل تحته أوجده الخوف : يراد انتزاع سر الجميع من خافي يمور بالصراخ وينزف الدم . وأنه لعنف لا مبرر له . وسواء أجزبت الضحية على الكلام وانتزع منها الصمت أو لقيت مصرعها بين جحيم العذاب فإن السر الذي لا حصر لعدده موجود في مكان آخر . . . لأنه بعيد عن تناولهم . .

وهنا يتقلب الجلاد إلى سيزيف : فإن عليه إذا طبق الاستجواب أن يبدأ دائماً من جديد .

ولسكن هذا الصمت وهذا الخوف وهذه الأخطار التي لا ترى قط ، وهي ماثلة لا تريم ، لا يمكن أن تفسر علة خراوة الجلادين ولما ردتهم في أن يسوقوا ضحاياهم إلى الضعة ومن ثم إلى المقعد البشري . إذا استولى عليهم على غير رضاهم .

إن القاعدة هي أن يتقاتل الناس ، يتقاتلون من أجل مصالح جماعية أو فردية .

أما في التعذيب ، هذه المباراة الغربية ، فإنما يقيس الجلاد فيها نفسه بالضحية من أجل صفة الإنسان وكل شيء يحدث كما لو أنهما لا ينتسبان إلى الجنس البشري .

إن هدف الاستجواب لا يقتصر على إجبار الضحية على الكلام وعلى

الحياة : بل على الضحية أن تشير إلى نفسها بالصراخ والاستكاثرة على أنها
بيمة بشرية ، في عيون الجيمع وفي عينيها بالذات .

يجب على خيانتها أن تحطها وتخلص المجتمع منها أبد الدهر .

ولأن من يستسلم للاستجواب لم يكن يراد فقط اجباره على الكلام ،
ولمعا هو قد أدين إلى الأبد بأنه أدنى درجة من الإنسان .

ولا شك في أن تعميم هذا الشرط سمة من سمات هذا العصر . ذلك
أن الانسان بحاجة إلى أن يصنع ، إن لم يولدته في أن يكون حرا لم تكن
في أي وقت أقوى منها الآن ولا أعمق وعاولذلك الاضطهاد لم يكن أعنف
ولا أفتك سلاحا مما هو حادث اليوم .

والمفارقات في الجزأر غير قابلة للتخفيف : فكلا الفريقين المتصارعين
يطلب بطرد الآخر طرداً كلياً .

ولقد اغتصبنا من المسلمين كل نبيء وحرمانهم كل نبيء حتى لغتهم .

وقد أوضح « ميمى » أن الاستعمار يتحقق بالقضاء على الوطنيين ،
لأنهم لم يعودوا يملكون شيئاً ، فقد صفت حضارتهم ؛ وكذلك حرمانهم
حضارتنا .

لقد طلبوا الانضمام فقلنا لهم لا ونحن نتساءل :

بأية معجزة ترانا نستبق الاستقلال الاستعماري إذا كان المستعمرون
يتمتعون بالحقوق نفسها التي يتمتع بها المستعمرون ؟ .

إن النظام المتبع كان يدفع هؤلاء المساكين البائسين الذين أضناهم الجوع والحرمان إلى تخوم الصحراء .

وهناك انخفض مستوى معيشتهم بسبب كثرة المواليد سنة في إثر سنة وجذب الأرض وأخير حينها اندلعت ثورتهم تخلصا من هذا البؤس الذي غشيهم واستبد بهم قلنا عليهم هؤلاء ليسوا بشراً فيما أن يلفظوا ألقابهم أو يؤكّدوا إنسانيتهم فإذا هم يستغنون عن ثقافتنا ويتخلون عن قيمنا وتقدمنا المزعوم . وتساوى عندهم أن يطالبوا بصفة الإنسان وأن يرفضوا الجنسية الفرنسية .

ولم يقتصر هذا التمرد على تحدى سلطان المستعمرين ، وإنما راحوا يكافحون من أجل وجودهم المهدد بالضياع .

إن هناك حقيقتين متكاملتين لا ينفصلان في نظر معظم الاوربيين المستوطنين في الجزائر .

ان المستعمرين هم ذوو الحق المطلق « الالهى » أما السكان الاصليون فهم أقل مستوى من البشر وتلك هي ترجمة اسطورية لواقع حقيقي ، مادام ثراء الأولين يقوم على بؤس الآخرين وهكذا يفرض الاستعمار أن يكون المستغل تبعاً للمستغل .

ثم إن هذه التبعية على صعيد آخر هي في صميم النزعة العنصرية ، وذلك هو تناقضها العميق ، وبشرها المرير

ان الأوربي الجزائري يرى أن صفة كونه إنساناً يعنى قبل كل شيء تفوقه العنصرى على المسلم .

وإذا اعتبر المسلم نفسه كإنسان يقف على قدم المساواة مع المستعمر

ثرى ماذا يكون الموقف ؟ إن المستعمر يشعر أنه قد طعن في كانه وخط من قدره .

وقد يفكر أحياناً في إبادة هؤلاء ولكن ما عساه يصنع من غير أيد عاملة رخيصة من السكان الأصليين ؟ وإذا كان المسلون حقاً بشراً مثلهم ، فقد ضاع كل شيء ولم يبق هناك حاجة حتى إلى إبادتهم .

ولكن هناك حلا آخر إذا كان الأمر يتطلب السرعة .

لأنهم يجب أن يسقوا الهوان وتعرض عليهم الذلّة والمكنة . وكذلك يجب عليهم أن يروضوا ويقاوموا في عنف ، فالجزائر لا تتسع لجنسين بشريين ، وإنما هي تتسع لواحد منهما نجسب .

لأنى لا أقول إن الأوربيين هم صانعو هذا العذاب ولا محرضو السلطات المدنية والمسكرية على اقترافه . بل على العكس .

لقد فرض التعذيب نفسه تلقائياً حتى أصبح أمراً ، ألوفاً عادياً . غير أن الإحن التي تتمثل فيه إنما تعبر عن العنصرية ، لأنه إنما يراد به القضاء على الإنسان نفسه بكل قيمه الإنسانية من أمانة ولجادة وشجاعة . القيم التي يطالب بها المستعمر .

ولكن إذا استخف الغضب بالأوربي لى درجة أن يحتقر صورته نفسها فذلك لأن عرياً قد عكس هذه الصورة .

وهكذا يبدو من هذا الزوج الذى لا يريد انفصالا ، المستعمر والمستعمر ، الجلاد والضحية ، أن الثانى ليس إلا تبعاً للأول .

إن الذى لاشك فيه هو أن الجلادين ليسوا مستعمرين ، ولا المستعمرون جلادين .

إن هؤلاء في أغلب الظن شبان أتوا من فرنسا حيث عاشوا هناك من غير أن يهتموا بالمسألة الجزائرية ولكن الحقد المشوب هناك أوجد مجالا للقوى المغناطيسية ، لجذبهم في دائرة استعباده .

إن هذا كله إنما يوحى به ما في قضية « البيج » من بصيرة هادئة واعية . فإذا لم يكن يحمل شيئاً آخر فينبغي أن نحفظ له عرفاناً عميقاً بالجميل ، غير أنه قد أتى بأكثر من ذلك فهو حين أخاف جلاديه ، إنما انتصر لإنسانية الضحايا والمستعمرين ضد العنف المحموم الذي ينطوى عليه بعض العسكريين وضد عنصرية المستعمرين .

وأرجو ألا تعنى كلمة « ضحايا » هذه نوعاً لا أفهمه من الإنسانية الباقية :

« إن البيج » وسط هؤلاء القواد الشبان الصغار الفخورين بفتوتهم وقوتهم وعددهم هو الوحيد الصامد الوحيد القوى حقاً . وبوسعنا نحن أن نقول إنه دفع أعلى ثمن ليؤكد حقاً معنوياً ، من أجل أن يظل إنساناً بين البشر . ولكنه لم يفكر في ذلك .

ولهذا فإننا نقف مبهورين أمام هذه الكلمات التي ردها في نهاية أحد فصول كتابه :

(ووجدت نفسي تغمرني السعادة وأزهو فخورا لأنني لم أتحزن ولم أتخاذل ولقد كنت على يقين من أنني سأقاوم إذا عاودوا الكرة . وسأكافح حتى النهاية ، وإنني لن أقدم على الانتحار حتى لا يلبثوا أملمهم المنشود ، وينهوا مهمتهم العسيرة) أجل إنه بطل ذو قلب حديد ، استطاع أن يلقى الرعب في أفئدة الشياطين الحاققة المهادرة .

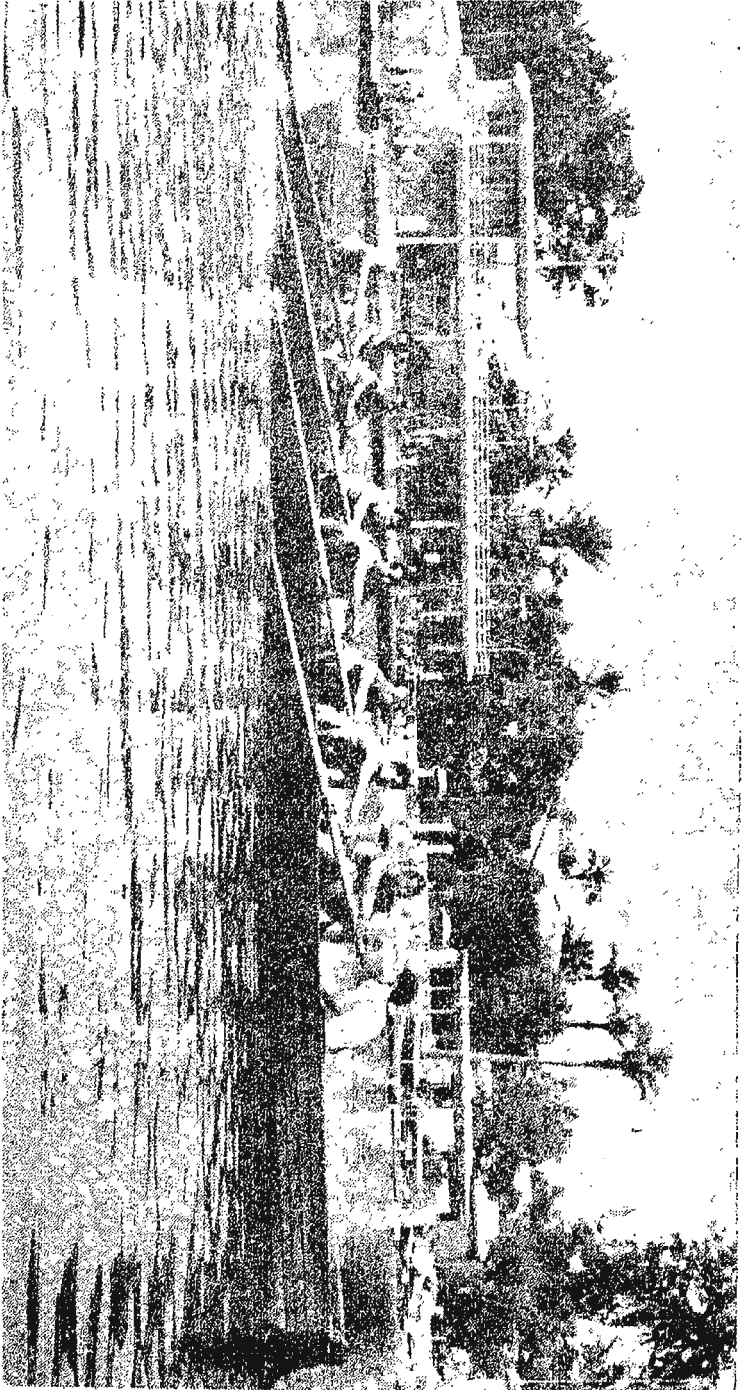
إننا نلمس في أحاديثهم سورة الغضب وكأننا يحاولون أن يقبلوا العالم
رأساً على عقب. لذا ما انتصرت الضحية .. فهم يعلنون أسفهم على زوال
السيطرة وحقوق السادة ، وأخيراً تجمد الأجنحة الملائكية أو الشيطانية
ويتساءل كل منهم (أتراني أستطيع المجادلة-لذا عذبيوني ؟)

ذلك أن نظاماً من القيم قد حل محل النظام الأول ساعة الفوز والانتصار .
ولا حاجة إلى أكثر من دقائق ليصاب الجلادون أنفسهم بالدوار ،
والحقيقة أن رعوسهم يانعة التطوف ، وأن العمل أكبر منهم ، ثم لهم
يستهلون ما يرتكبونه من جرائم ولا يكادون يصدقون ما فعلوه .

وبعد فما جدوى اطلاق ضمير الجلادين ؟ لماذا فكر أحدهم في أن يقول
شيئاً بادره الآخرون بقولهم :
لذا فقدنا إنساناً ، فاننا نجد عشرة بدلا منه .

إن شهادة « أليج » تبدد أوهامنا : لا ، إنه لا يكفي أن تنزل العقاب
بعض الأفراد أو نعيد تربيتهم ، ولن نستطيع وصف الحرب الجزائرية
بأنها حرب تقوم على مثل إنسانية لأنها قامت أساساً على التعذيب . .
هذا التعذيب الذي أملته الظروف وشدت نكيره النزعات العنصرية . .

ولذا كنا نريد أن نوقف هذه الأعمال الإجرامية التي تنفر منها
الإنسانية ، وأن نتشل فرنسا من وصمة العار ، ونتخذ الجزائريين من هذا
العذاب الوحشي ، فليس هناك إلا سبيل واحد هو أن تفتح باب المفاوضات
على مصراعيه وندخل إلى السلام من أوسع أبوابه . . .



نادى التجديف بالاسماعيلية

تشجيع هيئة قناة السويس للمشروعات السياسية بمنطقة القناة

أدلى المهندس محمود يونس ، رئيس هيئة قناة السويس لجزيرة الأبخار بجديده تناول فيه موضوع جزيرة البلاح التي تقع وسط القناة بين مدينتي بورسعيد والاسماعيليه وامكان جعلها مركزاً سياسياً يستطيع استغلاله من الناحيتين السياسية والاقتصادية في المنطقة .

فن المعروف أن قافلة السفن القادمة من الشمال تتحرك من بورسعيد في اتجاه الاسماعيليه في الساعة السابعة صباحاً فتبلغ جزيرة البلاح في حوالي الساعة الثانية عشر ظهرآ وكي تستطيع القافلة القادمة من الجنوب في اتجاه بورسعيد مواصلة سيرها عبر منطقة البلاح ، حيث لا تتسع القناة لدرور القافلتين في وقت واحد ، ترسو سفن القافلة الأولى ، ويتراوح عددها بين ٢٠ و١٥ سفينة ، في محاذة الشاطئ ، الغربي للجزيرة طيلة الفترة الكافية لدرور القافلة الأخرى ومن هنا نشأت فكرة استصلاح جزيرة البلاح على أسس سياسية وذلك بإقامة مطعم شرقي فاخر بجانب مقاصف وملاهي ومحلات لعرض وبيع السلع المحلية حيث يستطيع عابروالقناة قضاء فترة توقف القافلة عند الجزيرة وفيها . وقد أعرب المهندس محمود يونس عن استمدااد الهيئة للتعاون مع الجهات المعنية في سبيل تحقيق مثل هذا المشروع وغيره من المشروعات السياسية التي تعود بالفائدة على المنطقة من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية .

اخترنا لك

مع الباعة في كل مكان

أشركنا لك في كل مكان

تأليف

الدكتور مصطفى الباعى

الثنى ١٠ قروش

اخترنا للطالب

مع الباعة في كل مكان

في ذكرى البطل
جلال الدين دسوقي

بقلم
على الجمبلاطى

المركز القومية للطباعة والنشر
شركة ذات مسئولية محدودة
١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج
تليفون ٤٥٢٤٦٠ - ٤٥٤٠٥ - ٢١٦٢٥

روايات عالمية

تقدم يوم السبت القادم

بَيْنَ مَلَكَتَيْنِ

قصة النضال الهائل على عرش انجلترا
بين اليصابات ومارى ستيوارت

بقلم الكاتب الانجليزي البكر

١. بارنجتون

الثمان

0683331



0683331

الكتاب ١٢٤
يصدر يوم الخميس ٩ نوفمبر (١ تشرين الثاني)

الدار القومية للطباعة والنشر
شركة ذات مسئولية محدودة
١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج
ت ٤٥٢٤٦ - ٤٥٤٠٥ - ٣١٦٢٥